

أحمد رفيق المهدي
شاعر الوطنية الانسان المحب

د . عبد القادر أحمد رمضان

قسم اللغة العربية

أحمد رفيق المهدي شاعر الوطنية الانسان المحب

بقلم الدكتور : عبد القادر أحمد رمضان

الشاعر « المرحوم » أحمد رفيق أحمد المهدي شاعر فحل من شعراء لغة الضاد العظام في أدبنا العربي الحديث ، أدب اليقظة والوعي القومي لأمتنا المجيدة المناضلة التي تأبى الضيم وتنافح عن عروبتها وعزة أوطانها مسلحة بقوة إيمانها بدينها وحققها في العزة والسيادة على الوطن العربي الكبير الذي ورثت سيادته عن آبائها العظام الذين حملوا لواء المعرفة والأخوة الانسانية للبشرية جمعاء .

وهو شاعر فذ فياض الملكة الشعرية ، عرك الحياة وبلا أحداثها منذ عومة اظفاره فما إن تفتحت عيناه على جمال الوطن الحبيب الى نفسه في بقعة من أعز بقاعه وأمنعها في بلدة بالجبل الغربي حيث كان أبوه يشغل رتبة قائمقام تلك البلدة وهي درجة رفيعة في ذلك العهد التركي المتداعي المؤذن بالزوال . حتى أفاق من حلم صباه الناعم الوردي الجميل على دوي قذائف البحرية الايطالية الغاشمة تدك حواضر وطنه الغالية مثل طرابلس وبنغازي ودرنة ومصراته مهدة بها لإنزال جنودها لاحتلال ليبيا ولتجعل منها جزءاً حيوا من امبراطورية مترامية تشمل ايطاليا وليبيا والحبشة وجزءاً كبيراً من الصومال في فترة تكوين الامبراطوريات الاستعمارية الظالمة بعد عصر تكوين القوميات الأوروبية عقب عصر الانقلاب الصناعي الأوروبي الذي خلف نظام الاقطاع في أوروبا في حين كانت الأوطان العربية تعاني من التخلف بسبب وقوعها تحت الحكم التركي المتداعي وحيث كان

الغرب الناهض يلعب الدولة التركية بالرجل المريض ويفتعل أوهى الأسباب
للاتقراض على أطرافها المترامية يقطعها جزءا إثر جزء حيث قد ساعد على
استقلال ما سيطرت عليه في أوروبا مثل شبه جزيرة البلقان واليونان وأخذ
يفزوها في عقر دارها في ولاياتها العربية المسلحة في شمال افريقية والشرق
الأوسط الى أن هزمها نهائيا في الحرب العالمية الأولى وتطلع الى اقتحام
عربها في الأناضول لولا نقر أباة من ابنائها زادوه ببسالة فانقلب
خاسئا مدحورا •

ولد أحمد رفيق المهدوي في بلدة « فساطو » إحدى قرى الجبل
الغربي جبل نفوسة سنة ١٨٩٨م حيث كان والده قائمقام تلك البلدة كما
كان جده أحد المهدوي عميد بلدية بنغازي فهو من أسرة ماجدة أورثته
الأنفة والحمية التي تدفعه الى أن يصدع بما يراه حقا وتحول بينه وبين
المساومة في حقوق وطنه وتحمله على رفض أنصاف الحلول وتجب اليه
ركوب الصعاب ان خيرينها وبين قبول ما يمس كرامته ويزري
سيادة وطنه •

فما إن أتم السنة السادسة من تعليمه حتى كان الاحتلال الايطالي
البغيض فيهاجر الى مصر وهو في الثالثة عشرة من عمره حيث أكمل فيها
تعليمه الابتدائي والثانوي حيث رحلت أسرته الى الاسكندرية ولما يمض
عام على الغزو الايطالي لليبيا الذي وقع في صيف عام ١٩١١م « أحد عشر
وتسعمائة وألف لليلاد » •

وفي رحاب عروس البحر وعلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط
الذي شهد الامجاد البحرية العربية أمجاد عبد الله بن أبي السرح وطارق
بن زياد ويوسف القرماني استأنف أحمد رفيق تعليمه الذي ابتدأه في

الوطن في مدرسة تركية فالتحق بالمدارس المصرية وجلس الى الحلقات العلمية التي تعقد في المساجد وكان يحرص على دراسة ما تخرجه المطبعة من كتب الأدب فقد ذكر رحمه الله أنه قرأ مع المرحوم بيرم التونسي رسالة الغفران وقد اتحيا ركننا من جامع الأباصيري •

أمضى رفيق في الاسكندرية ثماني سنوات دارسا قارئاً متأملاً انتقل خلالها من الصبا الى مرحلة الشباب وتكونت فيها اتجاهاته الأدبية وتفتح فيها وجدانه وشهد فيها المجتمع المصري إبان الحرب العالمية الأولى وما تفرضه عليه من تبعات وما يعاينه من عنت المستعمر الانجليزي وغطرسته وعرف الوطنية في الثورة المصرية وهو يستحضر في ذهنه أحداث وطنه الجسام وتضحيات أبنائه الجسام وبطولات مجاهديه في دفع غزاة يفوقونهم عدداً وعتادا سلاحهم الايمان والحمية العربية التي تأبى أن يهان الوطن وتستباح مقدساته •

فكان كل ذلك مما أيقظ الشاعرية في نفس رفيق وكانت أول قصيدة له في رثاء محمد فريد رمز الوطنية آنذاك^(١) •

عاد رفيق الى الوطن في اكتوبر سنة ١٩٢٠ عشرين وتسعمائة وألف للبلاد بعد اتفاق الرجمة وكان وضع ليبيا أشبه بالاستقرار بعد الذي عاته البلاد من سني الحرب والجاعة والأوبئة •

فقد وجد في البلاد قانونا أساسيا وبرلمانا وسياسة مبنية على التفاهم كما وجد على رأس بلدية بنغازي أحد أصهاره وهو الأخ محمد المحيشي فعينه في إحدى وظائفها • ولكن هذا الهدوء كان يخفي وراءه غليانا شديدا وثورة توشك أن تندلع :

(١) مذكرة لصاحب البحث في الادب الحديث في المغرب العربي قررت على السنة الرابعة بكلية اللغة العربية والدراسات الاسلامية ١٩٧٣/١٩٧٦ م

أرى تحت الرماد وميض نار توشك أن يكون لها ضرام

ولم تمنعه الوظيفة أو صلته برئيس البلدية صهره من نقد الأوضاع
في قطعتين احدهما في نقد الحزب الدستوري العربي والأخرى في نقد
صحيفة برقة .

فقد كانت فكرة الطليان كغيرهم من الاستعماريين تمزيق الوحدة
الوطنية بين أبناء الوطن الذي يتلى بهم سيرا مع المثل الاستعماري القديم
« فرق تسد » . كانت فكرتهم أن يثير هذا الحزب بمنشوراته العرب على
الترك وأن يشيع اعضاؤه في الناس أن الطليان قد جاءوا ليحرروا العرب
من الاتراك وهو بهذا يكون أداة استعمارية . فقال رفيق مهاجما سياسة
هذا الحزب التي لا تخدم الوطن والقطعة وإن كانت من شعر صباه حيث
لا نضج للملكة القريض ولا اكتمال للتجارب الانسانية والادبية إلا أنها تدل
على نزعة فنية صادقة ووطنية صادقة تسمو بمصلحة الوطن فوق كل
اعتبار وهي :

الحزب الدستوري العربي	ينبوع الباطل والكذب
قد لفق أحقر شذمة	لم ينقصهم إلا الذنب
قالوا إنا قوم جئنا	لندافع عن مجد العرب
كذب كذب كذب كذب	متأت من سوء الأدب
ما أتمم للطليان سوى	بقر للخدمة لا الحلب
وكلاب ليس لها أمل	إلا في الراتب والرتب ^(١)

(١) مذكرة الادب الحديث في المغرب العربي ص ١ . لم تثبت هذه القطعة
في ديوان الشاعر بأجزائه الثلاثة مع ورودها في بعض الكتب الادبية التي
ارخت نضاله ومع شيوعها على السنة الجماهير أثناء الجهاد الوطني .

فالشاعر يهاجم أعضاء الحزب مهاجمة عنيفة إذ يصفهم بالكذب
وحقارة الشأن والبغاء عندما يحاولون خداع الشعب عن نواياهم الخبيثة
ويكذبهم ويجردهم من اخلاق المواطن الصالح ويدفعهم بأنهم ليسوا إلا
أدوات حقيرة للمستعمرة لا ترتقي الى مستوى الحيوانات التي تقدر لدرها
وانما هم بقر خدمة تشقى في الحرث بل أقل شأنًا من بقر الخدمة انهم كلاب
يشقى بها الوطن نظير فتاة مؤائد المستعمر • وليس لهم من شرف المواطنين
البسلاء نصيب •

أما جريدة برقة فهي تمثل أداة أخرى من أدوات الاستعمار تدعو
الى المصانعة والتزلف للمستعمر وترى الذكاء في مسالته والنزول عند
مشيئته فهاجمها رفيق برغم الصلة التي تربطه بمديرها بقصيدة ذاعت بين
أبناء الشعب رغم وسائل القمع والكبت آنذاك فمن تلك القصيدة قوله : -

ألم يبلغك ما قال البريد ؟	هراء لا يضر ولا يفيد
مسيلة الجرائد ما تنبا	وزاد فدينه كفر جديد
تملق كي ينال رضاء قوم	فما رضي الإله ولا العبيد
فما ربحت تجارته فتيلا	ولا هو في مساعيه حميد
ومنها :	

متى تأتي لنا البشرى بأن قد	توفي قبل نشأته الوليد
لعمرك جاهل من يشتريه	حرام ذلك الثمن الزهيد

أرأيت أسلوب رفيق الساخر بالبريد وهو اسم جريدة برقة تلك
التي تحاول أن تنفذ الى عقول قرائها وتحجب اليهم مهادنة المستعمر الدخيل
وتدعوهم الى القاء السلاح وتركه ينعم في خيرات الوطن ويرضي حقه
بافناء أهله •

فأراء تلك الجريدة الناشئة تحت حراب المستعمر المشرعة هراء

لا تستطيع التفرير بسواطن وهي في الجرائد كمسيلمة الكذاب لا تكتب إلا باطلا ولا يصدر عنها إلا كفر بحقوق الوطن نكران لآلائه على ابنائه تفعل ذلك رياء وممالة للمستعر الدخيل فتغضب عليها الله والناس وهي من ثم خاسرة في سعيها ضالة عن الرشاد خسيصة في نظر الأحرار ثم تكون سخرية الشاعر بها عندما يتشوق لموتها قبل أن يشتد لها ساعد وهو يعمل من جانبه على الاسراع بالفناء لها عندما ينصح القراء بعد شرائها ويرمي مشتريها بالجهل وسفه التبذير بدفع ثمنها لأن ما فيها من آراء لا يعدل ثمنها الزهيد قيمة •

ومهما يكن الأمر فان هذه المجاهرة بالعداوة للمستعمر ولدعاة مصانعته قد صيرت حياة الشاعر محفوفة بالخطر فلم يكن له من الهجرة يد حيث أجبر على مغادرة الوطن الى تركيا عام ١٩٤٢ م^(١) وكان أبوه وأخوه قد سبقاه اليها وأقاما في مدينة صغيرة قرب سوريا تسمى جيحان فأقام الشاعر معهما يشاركهما تجارة صغيرة اتخذها معاشا لهما • وكان يقرأ ما يقع تحت يده من كتب العربية مثل كتاب الأغاني وكانت جذوة الشعر ما تزال تومض في صدره •

أمضى رفيق في مهجره بتركيا تسع سنين اتخذت فيها وطنيته سمة الحنين الى وطنه ورفاق صباه فكان يبدع آيات القريض مصورا بها مدى ما يجد من شوق وما يعتلج في صدره من شقاء وشعور بالحرمان وبالهبوط لا بتعاده عن ربوع الوطن الحبيب وما يعتريه من حب صادق ورغبة أكيدة في الرجوع وما يساوره من قلق وعدم اندماج في بيئته الجديدة لأن فؤاده رهين الوطن والاصدقاء لا يدع مناسبة لقول القريض إلا ويسجل فيها تسجيلًا بديعا صادقا معاناته الاصيلية العاتية فهو يذكر وطنه على الحول من

(١) الثقافة العربية العدد الثاني من السنة الخامسة صفر/ربيع الاول ١٣٩٨ ص ١١

اجباره على تركه واضعا شعوره الذي لم تلم به مسرة تخفف مما يعاينه
ويجسد قهر الظروف التي أرغمته على الهجرة لما عاناه من صغار وارهاب
في وطنه فأمل أن يجد في هجرته العزة والحرية فكان الأمر على عكس
ما رجا فكانت هجرة خاسرة أوحث اليه بشؤم الغراب المقلد الذي أضاع
أصالة صفاته بجهل وعدم اتقان ما أضاع أصالته لتقليده وذكر أن الدموع
المخففة من وقع الأحزان لا تزيد حرقاته إلا ضراماً كما يفعل الماء بالجير
الحي الذي يزيد الجير مع برودته تفاعلاً واشتعالاً •

يقول الشاعر من قصيدة ضاع أكثرها كما ذكر الشاعر نفسه :

(١) تكامل حول منذ فارقت أوطاني	فما نلت في اثنائه غير احزان
نوى قذف زمت ركابي ولم تزل	تغلغل بي حتى أتت أرض جيحان
فألقت عصا التسيار في شربقة	تألب في أرجائها شر سكان
تركت بلادي إذ شعرت بأنني	سألقى صغارا منه يأنف وجداني
وسرت لأرض غير أرضي مؤملا	لعز فكانا في المصيبة سيان
فيا خيبة المسعى الى غير موئل	من النجع مشفوع بأعظم خسران
فقدت بلادي وهي عندي عزيزة	ولم ألق ما أملت في بلد ثان
كأنني غراب البين ضيع مشية	ولم يكتسب مشي الحمام بإتقان
حنينا وشوقا يا بلادي فأنني	وان طال عنك البعد لست بخوان
فما كان بعدي عنك إلا ترفعا	عن الضيم لا بغضا ولا قصدهجران
وإني لأكفي في الجوانح لوعة	لحبك يوربها على البعد تحنان
إذا خفف الدمع الأسى فمدامعي	لها وقدة زادت أساي وأشجاني
كما كان عذب الماء في الجير منشئا	على خصر فيه حرارة نيران

(١) الديوان الفترة الثالثة ص ٧ - ٨

عاد رفيق لرحاب الوطن الذي يحبه ولا يحس بالسعادة والطمأنينة
إلا في رحابه سنة ١٩٣٣م عاد اليه مرة أخرى من مهجره بتركيا ولكن
الايطاليين الغزاة ضاقوا بمقامه فأجبروه على مفارقتة لتركيا مرة أخرى ثم
عاد اليه مرة ثالثة في عام ١٩٤٦م وشارك مع غيره من المثقفين في الحركة
الوطنية الداعية الى الاستقلال التام والوحدة الوطنية والتخلص من عهد
الادارات ودخل السجن مع مجموعة منهم وقد سجل ذلك في قصيدة
منها قوله :

(١) إن تدخل السجن ما في السجن من بأس فيه الكرام وفيه أفضل الناس
كما قال يصور ذلك في قصيدة أخرى منها قوله :

إن تدخل السجن ما في السجن من عار	نعم المقام لأبطال وأحرار
السجن أهون شيء عند محتقر	للموت في شرف في عز جبار
والظاهر النفس من وخز الضمير وإن	لم يدخل السجن في سجن وفي نار
يد الخيانة حط الشرع قيمتها	حتى لقد «قطعت في ربع دينار»
فمن صفت روحه مما يدنسها	فليس في موته في السجن من عار
والصبر أفضل اخلاق الرجال ولا	يكون إلا لقلب غير خوار (٢)

ولقد كان الشاعر أحد أعضاء جمعية عمر المختار البارزين وقصائده
الوطنية التي يزخر بها ديوانه تصور بجلاء رأيه في القضايا الوطنية ودعوته
الصادقة وصوته الجمهوري المدوي بنداء الحرية التامة وعدم قبول أنصاف

(١) الثقافة العربية العدد الثاني السنة الخامسة ص ١١

(٢) الديوان الفترتان الرابعة والاخيرة ص ٢١ - ٢١٦

الحلول وحته على وحدة الوطن والتنديد بدعاة الانفصال والعصبيات
البعضة •

ولقد كرم رفيق بعد عودته الاخيرة لربوع الوطن وانتخب أحد
أعضاء مجلس الشيوخ وقد أدركته الوفاة في اليونان عام ١٩٦١ م واحد
وستين وتسعمائة وألف للميلاد عن ثلاث وستين سنة وقد أحضر جثمانه
من هناك ودفن في أرض الوطن الذي أحبه وأخلص في الدفاع عنه
والحنين إليه^(٣) •

(٣) الثقافة العربية ص ١١

الوطنية في شعر أحمد رفيق المهدي

لعل أبرز الأغراض التي قال فيها الشاعر روائع قريضه هي الوطنية ؛ وإذا كانت الوطنية من أبرز سمات شعرائنا في العصر الحديث لأن الشاعر ابن وطنه وثرة طبيعية للظروف التي يحياها هذا الوطن وإذا كان وطننا العربي الكبير قد تعرض لظروف قاسية نتيجة لتخلفه بسبب وقوعه تحت الحكم التركي الذي كان سببا في ضعفه وطمع الغرب فيه منذ أن استيقظ الغرب على حملة نابليون بونابرت • فليس غريبا أن يتفوق أحمد رفيق في هذا الغرض الرئيسي من أغراض الشعر في العصر الحديث فقد أفاق على دوي قنابل العدو تدك مدن وطنه العزيز الآمن سنة ١٩١١م إحدى عشرة وتسعمائة وألف للميلاد وأجبر على الرحيل عن مراتع صباه ومواطن ذكريات صباه وأحلامه الوردية قبل أن يكتمل عام على بدء الغزو البغيض ويعود الشاعر لرُبوع الوطن الحبيب بعد أن اشتد ساعده وأصبح قادرا على النضال والمنافحة بالكلمة الثائرة والفكرة الهادية والجنان الثابت فيجبره المستعمر الغاشم على مغادرة الوطن للمرة الثانية والثالثة ثم يعود ليدخل السجن في عهد الادارات ولكنه يستمر قائما برسائله الشعر الجليلة المنددة بكل من تحدثه نفسه بالتنكب عن مصلحة الوطن العليا أو التهاون في السعي المتواصل الدؤوب اليها الى أن يشهد بأم عينه ثمرات جهاده وجهاد المخلصين من ابناء الوطن الحبيب وقد أينعت نصرا وهزيمة للاعداء فيشيع ايطاليا الذليلة المنهزمة بقصيدته الرائية الرائعة الزاخرة بالسخرية يبعث بها من مهجره بتركيا إذ يقول منها :

قد اتلف الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار
الى بسن المقر وحيث ألفت برحل حول ساحته الدمار
مضت مصحوبة بدعاء (شر) يكرره شمات واحتقار

كما شاهده وقد تحققت ارادة الوطن في وحدة وطنية ضمت ولاياته
برقة وطرابلس وفزان وما زال المخلصون من أبنائه يعملون على تحرير هذه
الارادة مما تبقى من آثار الاستعمار البغيض ماثلة فيما جثم على بعض
ربوعه من قواعد وجاليات ايطالية مستغلة حتى تحققت أحلامه في ثورته
العنيفة الرائدة التي تفجرت صباح الفاتح الاغر من سبتمبر عام ١٩٦٩ م
فحطم الشعب قيوده وانطلق يحقق المعجزات ويقهر التخلف وينادي بحرية
الشعوب الثائرة لتحقيق حرياتها وحقق تجربة عصر الجماهيرية وتجربتها
الرائدة في مجال الحرية والسيادة الوطنية فقامت سلطة الشعب ووضعت
السلطة والثروة والسلاح بيده وحررت طاقاته للبناء •

ولقد تجلت وطنية رفيق في كثير من البواث التي دعت له لقول الشعر
في أثناء اقامته بالوطن أو إبان فراقه له فقد خلد دلائل الوطنية في تأكيد حبه
للوطن وندمه على فراقه واشتياقه للعودة اليه وحنينه لذكريات الصداقة في
رحابه ونضاله اعداءه والموالين لهم وتنديده بالمنحرفين ودعوته للتمسك
بوحدة الوطن وحته على الاخذ بأسباب الاصلاح والدعوة لرعاية الايتام
من جنى عليهم المستعمر بقتل آبائهم وذويهم •

فها هو الشاعر يحكم على نفسه بالخطأ وعدم اصابه كبد الحق
وسداد الرأي عندما خرج من الوطن ويتعجب كيف سمح لنفسه بفراق
وطن فيه كل ما يحب في الوجود فيه الحبيب ومسقط رأسه وفيه الاهل
والاصدقاء الاوفياء ويلج الشاعر في تخطئه نفسه والتعجب من أن يجانبه

التوفيق في الاجتهاد اذ ظن أنه يمكنه ان يكون أكثر حرية وأقدر على خدمة قضية وطنه من خارجه وأنه بهذا يخفف من شدة حنينه اليه فلم يكن له ما أمل .

كما يؤكد ان الاغتراب مدعاة للحزن والعزلة النفسية وانحطاط المنزلة الاجتماعية في ديار الغربة فلا يملك المغترب والحال تلك سوى تذراف الدموع ومعاناة الحشرات والتقلب في الفراش عندما ينام الخليون الناعمون بأوطانهم ويتساءل الشاعر ان بقي أهلا لان يحفظ الحبيب عهده والشاعر هو الذي اختار النوى وبعد المزار خصوصا وللحبيب من أبناء الوطن المولعين به من شاعره عوض وأي عوض وييدي الشاعر ويعيد قفل هذا الموشح الرائع الذي هو ذوب العاطفة الصادقة وفيض تجربة قوية أصيلة منحت الشاعر عفوية محببة للنفوس ومست من وجدان متلقيها وترا مرنا هتوفا فاعدت عواطفه فلم يكن له بد من مشاركة الشاعر صادق عواطفه وهذه سمة الاصاله في الشعر يقول أحمد رفيق من قصيدتي « وطني » :

لم أكن يوم خروجي من بلادي بمصيب
عجبا لي ولتركي وطننا فيه حبيبي

وطننا فيه أناسي
وبه مسقط رأسي
لست ما عشت بناسي

لذة العيش الخصب
بين أهل وقريب
وصديق وحبيب

(١) الديوان > ١٩/١ - ٢١

لم أكن يوم خروجي من بلادي بمصيب
عجبا لي ولتركلي وطنا فيه حبيبي

عجبا لي يا بلادي
كيف ضيعت رشادي
لم أوفق في اجتهادي
حين فارقت حماك
وتوطنت سواك
بان لي قدر الغريب

لم أكن يوم خروجي من بلادي بمصيب
عجبا لي ولتركلي وطنا فيه حبيبي

ان من عاش غريبا
عاش لا شك كئيبا
واذا كان أديبا
عاش مجهولا مضاعا
ينفق العمر التياعا
بين حزن ونحيب

لم أكن يوم خروجي من بلادي بمصيب
عجبا لي ولتركلي وطنا فيه حبيبي

لم تزدني ذكرياتي
غير سح العبرات
يا لهول الحسرات
حين آوي لفراشي
تلهب الاشواق جأشي
كفراش في لهيب

لم أكن يوم خروجي من بلادي بمصيب
عجبا لي ولتركي وطننا فيه حبيبي
أترى يذكر ودي

أم سلاحي لبعدي
ورأى في الناس بعدي

من له مثل ولوعي
في هواه وخضوعي
ووفائي لحبيبي

والشاعر يصور نفسه يوم الرحيل تصويرا صادقا زاخرا يسواعث
الاسى والحزن العميق الذي يئلا على الشاعر جوانحه فينهار تجلده وتتحدّر
دموعه ويبدع في تصوير تضارب عواطفه وشدة الموقف على نفسه المتعلقة
بالوطن فتشال عليه الصور الفنية المبتكرة عندما يصير مفارقة الوطن ضربا
شديدا من نزع الروح ويؤكد ان الهجرة أشد وقعا من معاناة الموت وأنه
قد وزع قلبه بين احبائه المقيمين في الوطن وأنه قدره الذي قضى على أبي
البشر بفراق جنته حتى تتضاعف مصائبه بمغادرة الوطن واخوانه الكرام
معا أولئك الذين قد احتفوا به وعبروا عن صادق الود مما أعجزه عن اداء
شكرهم على لسنه وفصاحته فهو يقول من قصيدة عنوانها « فراق » :

(١) سكتته يوم الرحيل فهاجا	شوق أثار الدمع الشجاجا
حاولت اظهار التجلد فائثنى	عزمي وراح تجلدي ادراجا
عالجت من ألم الفراق وهوله	مالا يفيد الصبر فيه علاجا
فعلمت كيف يكون نزع الروح في	حال تضارب عندها الاوداجا
ان الفراق بلا لقاء يرتجى	موت يكرره الحنين هياجا

(١) الديوان ج ٢٢/١

الى أن يقول :

يا من يعز فراقهم والله لو خيرت ما اخترت النوى منهاجا
لكنه قدر قضى من قبلنا لابي البرية آدم الإخراجا
وقضى عليّ به وزاد فراقكم ليكون وقع مصائبى أزواجا

والشاعر في قصيدته هجرة ووداع يعلل أسباب هجرته ويردها الى أمور جماعها عزة النفس والاخلاص للوطن وعدم القدرة على خيائه بمجاملة اعداء الوطن والدخول فيما دخل فيه من لا خلاق لهم ممن باعوا حق الوطن مقابل منصب زائف أو عرض زائل أو قبول للضييم وترك النضال غير المتكافئ في سبيل الوطن والشاعر مع اقتناعه بأن ترك الوطن تحت ضغط العدو الغاشم مقبول يرى أنه قد جانب الصواب وأتى عظيما من الامر وكأنه كان يرى أن يبقى في رحاب الوطن يصارع حراب الاعداء بصدر غير دارع ليلقى المنون على ثراه ويعانقه عندما تفيض روحه شهيدة هوامه كأنه يرى أن اذعانه لإرادة الدخيل الغاشم ورحيله عن الوطن ضربا من التهاون في حق الوطن وأخذاً برخصة وتقية يأبأها الاحرار ولهذا فقد أقضت مضجعه وأوقعته في حيرة لا تنكشف عمايتها واسلمت الشاعر لتأنيب ضمير حاد جاشت له عبراته حتى شرق بها وأوشكت أن تخنقه .

يقول أحمد رفيق :

(١) رحيلي عنك عز عليّ جدا وداعا أيها الوطن المفدى
وداع مفارق بالرغم شئت له الاقدار نيل العيش كدا
سأرحل عنك يا وطني واني لاعلم أنني قد جئت إذا

(١) الديوان ج ١ / ٢٣ ، ٢٤

الى أن يقول :

فأوسعني زمان السوء ردا
أقد بها حجاب الغيب قدا
ولا أني منحت سواك ودا
جهدت ولم أجد من ذاك بدا
فانك واجد إربا وجدا
وفي عنقي أرى للاسر قدا

طلبت العز في وطني مقيما
سأركب عزمة حذاء أمضي
ويا وطني هجرتك لا لبغض
فلا والله ما هاجرت حتى
يقول لي الصديق أرح ركابا
هداك الله كيف تطيب نفسي

الى قوله :

وأحيانا يكون الحب صدا
خلي من جوى للعقل صدا
أرى في جبه الاعداء ندا
تحير رأييه أخذا وردا
فوا أسفا اذا ما البين جدا
وهذا البين ركن الصبر هدا
وداعا أيها الوطن المفدى

ويا وطني نبا بي عنك حب
وقد يأتي الغيور بما يراه
فلست ألام في تركي حبيبا
ويا وطني وداعا من محب
وداعا لا أظن له لقاء
أنادييه وقد زمت ركابي
وجاشت تخنق العبرات صوتي

حتى اذا ما نزل الشاعر ببلدة جيحان من تركيا وقبل أن يطول مقامه
بها ساوره الحنين العاتي واستبد به الشوق الممض وأخذ يردد هتاف
الذكريات العزيزة على فؤاده وشعر أن مجرد تأخير رسائل اخوانه عن
مواعيدها ضرب من الجفاء فما كان لمثلهم في وفائهم وودادهم أن يسلموه
لتباريح الفرقة والاعتراب تفترسه وتضنيه وتنحله وكيف يقوى على نوى
فرقت بين جسده وفؤاده الذي لم يقر الشاعر على هجرته أو قبوله بها فلزم

ربوع الوطن ومواطن ذكريات الاحبة به أو اتخذ هجرة مضادة فغادر مقره
بين جوانح الشاعر ليطير على جناح الذكريات حيث يشارك أخوة النضال
نضالهم في رحاب الوطن كما يشاطرهم اويقات أنسهم التي طالما شاطرهم
الشاعر إياها عندما كان في غفلة من عين دهره •

ويلتفت الشاعر مبررا أسباب هجرة أدرك الشاعر فداحة خسرانها
منذ البداية فلا يجد مبررا مقبولا إلا أن يكون عقابا من الدهر لعدم
شكران نعيم الصبا الذي لم يف الشاعر بحقوق شكره ولقد كان على حظ
وافر من صدق العاطفة التي تعيد الى ذهن قارئ القصيدة التياح شاعر
الحب الاندلسي الكبير ابن زيدون في نونته الرائعة التي تشوق فيها الى
أيام وصال ولادة بنت المستكفي الاميرة العريضة الشاعرة والتي تركت
أصداء قوية في الادب العربي في هذا الغرض الانساني من أغراض الشعر
مما أغرى أمير الشعراء بمعارضتها عندما بعث من منفاه بالاندلس بنونيته
متشوقا الى أرض الكنانة •

ويمتد نفس الشاعر في التحسر على ما كان يجده في رحاب الوطن من
لذائذ العيش ومتع الحياة اليومية والفكرية بصحبة الاصدقاء الاوفياء
الذين شاركوا الشاعر صفو الحياة وأريحية الشباب فحرمهم كما حرم نعمة
الكرامة التي لا يقدرها قدرها إلا من ابتلى بفقدائها في مطارح الغربة ويلج
على فكرة أن اغترابه ضرب من عقابه على افراطه في شرب صفو الحياة إبان
الشباب دون شكران •

كما يصور حاله تصويرا صادقا كما أشار لتلك الحال الشاعر
العربي القديم :

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهم بالليل مضجع

فهو مؤرق الليل يجفوه الكرى ان رقد الخليون وكل بارق بالافق
الغربي يشده لوطنه واخوانه فلا يجد مسعفا غير الدموع وهو ييدي عن
ثقة مطلقة في الله جل شأنه أن ينهي غربته وأن يجمع بينه وبين مواطنيه على
بعد الشقة بين برقة وجيحان الى غير هذه المعاني الفريدة بما زخرت به من
وداد محض وعواطف قوية صادقة فمما قاله هذه الابيات من قصيدة حنين
غريب لاوطانه :

لشد ماشفنا شوق فأضنانا	(١) يامن على البعد نهواه ويهوانا
يا من يبلغ للاحباب شكوانا	ذكرى عهود الهوى باتت تساورنا
نزيد ذكرا لمن يزداد نسيانا	إنابحكم الهوى صرنا - ولاعجب -
جسما هنا وهناك القلب ولهانا	ما انصفتنا الليالي في نوى تركت
إلا على رغم أنف الدهر طغيانا	أما الشباب وما كان الشباب لنا
ما لذة العيش إلا فيه اذ كانا	كان الجنون وما أحلى الجنون به
قدرا وكم جحدا الكفران احسانا	وما عرفنا له في حال نشوتنا
إذ كان كالزهر رفاقا وريانا	يا حسرة ما تمتعنا برونقه
ذقنا لها حسرة حرى وفقدانا	كأنه نعمة من بعد ما ذهبت
بهم إخاء صفا سرا واعلانا	ورب اخوان صدق كان يجمعنا
تجلو عن القلب من دنياه مارانا	كانت مودتهم قربي ورؤيتهم
إلا صداقة من بالصدق صافانا	ما سرنا بعد ما ولت شبيبتنا
بنا جزانا به الاحباب هجرانا	حتى خرجنا على الاوطان من بطر
فهل على بالهم يجرون ذكرانا	إننا على الهجر ما ننفك نذكرهم
شوق إذا رقد السمار ناجانا	ما خيم الليل إلا بات يقلقنا

(١) الديوان ج ١ / ص ٢٥ - ٢٦

نحن شوقا الى أوطاننا فاذا تبسم البارق الغربي أبكانا
ومن سوانا جدير بالبكاء على ذكرى الفويهاات والبركا وجليانا
معاهد حبها لو لم يكن شغفا بما لها من جمال كان إيماننا
لا عز إلا لثاؤ في موطنه إن الغريب مهان أينما كانا
ما أقدر الله أن يدني على شحط سكان برقة من سكان جيجانا

أصدقاء الشاعر كثر وجلهم ممن يعتز الشاعر بصداقتهم فهم على
شاكلته أدبا ووطنية وانسانية ووفاء بالعهود وحفظا للاخوة ورعاية لمن تأت
بهم الدار وكان من أجلهم منزلة لدى شاعرنا صديقه الشيخ موسى بن أحمد
البرعصي من رجالات بنغازي وأحد المحامين الشرعيين بها كان أدبيا شاعرا
فكها أريبا ولهذا فقد أرسل الشاعر اليه قصيدة عرفت بالموسوعة ذاعت
لقبيتها الادبية ولتصويرها البارع للواعج ونبو دار هجرته به ولما
اشتملت عليه من تصوير واقعي لحياة العسف الذي مارسه ايطاليا لوطنه
العزير وللحال المتردية التي استبدت بضعاف النفوس ممن وقعوا في برائن
الاغراء الاستعماري فنصبهم عيونا على ابناء الوطن المخلصين يرقبون
حركاتهم ويجهدون لاقتعال المبررات للزج بهم في غياهبات السجون مما تعذر
مع تلك الحال على الشاعر البقاء في الوطن ولم يجد معها بد من مغادرته •

كما كانت القصيدة شريطا من أشرطة الخيالة يسوج بذكريات الشاعر
واماكن سمره ونزهاته وصف بها جمال الربيع بالفويهاات ورقة الامسيات
بالبركة وجمال الغيد الحسان في أزر السباحة وحلل المصيف وما لها من
شدة الاغراء الأسر لحيوية الشباب كما وصف جمال غروب الشمس
العسجدي على صفحة البحر الزرقاء اللازوردية وحيث تسعد الاذن نغمات
ارتداد الامواج الحاملة اثر معانقتها رمال الشاطئ الوادعة كم برع الشاعر في

وصف ليالي السر بحنان المحيشي وما يدور فيها من سماع وشراب كان به العيش مخضر الاعطاف رقيق الحواشي قبل أن يقلب الدهر للألاف ظهر المجن فيعقب صفوه بمرارة عيش تشق المرائر ختمت تلك المرارة باخراجه طريدا من الوطن فكان بهجرته كالمستجير من الرمضاء بالنار إذ لم يجد في هجرته الا الاهانة وتعقب الحكومة التركية التي اجبرته على التزام الصمت وتحيفته بالوان الحيف والظلم .

ويتعجب الشاعر من مسلكه هذا الذي كلفه العناء وهجرة الوطن وبتساءل عن السبب الحقيقي لشدة ابائه وعدم خضوعه لسلطان حكم إلا لسلطان الله ذي الجبروت الذي بيده مقاليد السماوات والارض المتصرف في تدبيرها كيفما يشاء ؛ أهو راجع الى فوضوية وحب للتمرد على كل نظام وكل سلطان أم أن له ما يبرر سلوكه من ظلم الحكام ويرجح الرأي الثاني كما ذهب اليه شيخ المعرة وفيلسوف الشعراء أبو العلاء عندما يصور جور الحكام بقوله :

ظلموا الرعية واستباحوا حقها وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

ويصور في واقعية محبة اجتياح موجة الشرور للبشرية جمعاء فعدا ابناؤها ذئابا على اجسادهم ثياب وأن أخذهم بأسباب القوة لدفع عادية الاعداء قد عدا تلك الغاية النبيلة الى نزعة حيوانية أثرت التباغض بين بني آدم ورسم الشاعر ما يراه وسيلة لصالح البشرية وهو الحب والاخاء الانساني والمساواة بين الناس لانهم بالفطرة أحرار متساوون في قيمتهم الانسانية لاما تردت الحضارة الغربية الطاغية فيه من نظريات التفرقة واستبعاد الشعوب . من تلك القصيدة الفريدة اثبت بعض ابياتها التي سجل فيها الشاعر انطباعاته وعواطفه المواردة الزاخرة وبعض أفكاره في الحياة والاحياء المعاصرين له :

(١) بعد السلام وتقديم احتراماتي
واشككي حر أشواقك اليك فقد
فارقكم وفؤادي ما يفارقكم
أهل الوداد وحبى للوداد هما

الى أن يقول :

أهديك يا سيدي موسى تحياتي
أذكاه في خاطري بعد المسافات
فقدنوه بأسباب وثبات
أسباب تعذيب قلبي واشتياقي

لم ترض عزة نفسي بالمقام على
خرجت من وطني مثل الطريد فما
أغرى الزمان بنا أعداءنا فسمعوا
تأثرني عيون القوم ترصدني
وما جئت سوى إنكار منكرهم
أعانهم كل نذل من بني وطني
فررت بالنفس لا من أجل عيشتها
حتى استجرت ولكن كنت من نكدي
ما جئت ملكة إلا تملكني
خلقت حرا فما فوق البسيطة من

ضيم الاغادي وأرباب الجهالات
ودعت خلا ولا أدركت ثارالي
لرجنا في مهاو من غيابات
تحصي خطاي فتحصيها خطيئاتي
بذودي فتعالوا في معاداتي
بما يبلغ غني من وثايات
لكن مخافة الحاق الاهانات
كالاستجير بعمر في الملمات
خوف وأدركني حيف الحكومات
أعنو له غير جبار السماوات

ومنها ايضا قوله :

توارث الناس فعل الشر فانعكست

آراؤهم في القضايا والقياسات

(١) الديوان الفترة الثانية ص ١ - ٦

ومنها :

لا طب عندي لداء الاجتناع سوى حب يحص أسباب العداوات
الناس كالناس والدنيا معاشرة بالعرف لا أمر خدام وسادات

وشوق الشاعر لوطنه ونزوعه اليه تيار عنيف جارف يعصف بتجدد
الشاعر ويؤرقه ولا تزيده أيام الهجرة الا تعلقا بالوطن فيرسل القريض
ذوب نفس أضناها البعد ترسل الزفرات الحرى والابن الصادغ الذي يمازج
شغاف القلوب معللا المرة بعد المرة اسباب الهجرة التي هي مغرم كلها لانها
مفارقة لاسباب العيش الرغد الكريم في رحاب الوطن وينحي الشاعر باللوم
الشديد على خرق ايطاليا المثل في سفه ضباطها الذين نصبتهم حكاما على
المواطنين على الرغم من سفهم وعدم خبرتهم ولا يعفي بني وطنه ممن ساروا
في ركاب المستعمرين الذين عبر عنهم الشاعر بقوله من قد طلينا أي اعتنق
آراء الطليان وسائرهم في رغبتهم في تثبيت حكمهم واستمر الشاعر في
القصيدة فنصح المخلصين من مواطنيه في التمسك بعروبتهم ومواصلة
التمسك بها وعدم الاندماج في المستعمر لان الظروف تبشر بقرب زوال
سلطانه عن ربوع الوطن يقول الشاعر من قصيدة يناشد بها وطنه عام ١٩٣٦
على البعد من جيجان :

(١) يا أيها الوطن المقدس عندنا شوقا إليك فكيف حالك بعدنا
كنا بأرضك لا نريد تحولا عنها ولا نرضى سواها موطننا
في عيشة لو لم تكن مزوجة بالذل كانت ما ألد وأحسنا

(١) الديوان الفترة الثالثة ٦٩-٧١

عفنا رفاه العيش فيك مع العدا
وسما بنا شوق الى حرية
يا أيها الوطن العزيز وإن نكن
أما هواك فلا لزوم لذكره
الى ان يقول :

جعلوك مسخرة بأيدي صبية
حكموا كما شاءوا فكانوا محنة
قالوا لقد جئنا نمدن أرضكم
هدموا من الاخلاق في أوطاننا
ويقول أيضا :

يا من تطوح في البلاد مهاجرا
كونوا على حذر ولا يفرركم
وخذوا النصيحة من محب مشفق
مثلي وخلاها الى من (طلينا)^(١)
وعد فيوم الفوز يوم قددنا
صدق الحديث ولا تقولوا من أنا

وهكذا فقد تجلت وطنية الشاعر أحمد رفيق في مظهر آخر مهم وهو
تصوير مدى حبه للوطن وتعلقه به وتصويره لما يجري في ارجائه من عسف
المستعمر حيث يقتل ابناءه في معارك غير متكافئة لا يجدون إزاءها إلا الثبات
حتى الاستشهاد الذي يعتقهم من ذل القهر وسخرية المستعمر المتغطرس
وجبروته دفاعا عن حياض الوطن وذودا عن شرف العرض وحماية الابناء
فلذات الاكباد من أن تنالها يد المستعمر أو ان ينال منها الفقر والتشرد .
ولقد برع الشاعر في هذا الضرب من شعر الوطنية الذي يدخل في

(١) الشطر الثاني اي العجز للمتنبي

(٢) طلين : صار ناصرا للايطاليين

أطار الوصف بغماء الواسع ففيه تصوير لبسالة البسلاء في معركة غير متكافئة سلاحهم فيها الايمان والرغبة في الشهادة دفاعا عن الوطن كما أن فيه تصويرا لالوان الفناء التي تطوي أسر الشهداء من اقتراس السباع الضارية إياهم ومن ترديهم في المهاوي السحيقة اثناء هيامهم في الجبال والهضاب فرارا من ذل الاسر كما يصور الشاعر لونا آخر من ألوان كيد الحكام المستعمرين لآبناء هذا الوطن والذي لا ينجو منه حتى اليافع من آبنائه الذين أووا للملاجئ تحت ضغط اليتيم وتشتت الاولياء إذا بدت على أحدهم سمات النجاسة والبطولة وأبدى رغبة في الانتقام من أعداء وطنه قاتلي آبائه وذوي قرباه •

فقصيدة الشاعر التي سماها باسم بطلها النقيب الصغير شهيد العدر الايطالي الذي سعدت روحه الى بارئها بسبب السم الذي أودعوه طعامه فاضت وهو يهتف بالانتقام منهم وتحرير الوطن من أرجاسهم ليأمن روح آبنائه من عوائلهم •

والقصيدة التي أربت على مئة بيت فكانت من قصائد الشاعر الطوال زاخرة بالعاطفة الصادقة والوطنية الحقة مما منحت الشاعر تجربة فريدة أثارت عليه أفكارها متدفقة مواره فحبه صفو القريض الرائع السبك الجزل في عباراته كما منحته صفاء القريحة فأجاد لا في الوصف الخارجي للمعارك المحتدمة وضروب الموت التي تخطفت الصبية والامهات الناجيات من براثن الاعداء وإنما أجاد في رسم الشخصية العربية ممثلة بكل فضائلها في شخص غيث الصغير الذي يأبى عليه شرف محتده إلا التفوق على الاقران في مجال العلم والذكاء وكذلك في مجال التفوق العضلي الذي يكون سببا في رئاسة الالداد واجبارهم على تقديره واحترامه وهذا الاعتزاز بالنفس الذي يحماها على تضبيب جراحات الدهر والتجلد أمام الاعداء وعدم

البوح بتصاريف الدهر إلا للأولياء الذين يحوزون ثقة هذا الغلام اليافع
وعدم اهتمامه بالمال فهو يوزع ما خصه الوالي به من مال تقديرا لمواهبه
الفذة وربما اغراء له واستللا لحقده على المستعمرين الدخلاء يوزعه على
إخوانه المشاركين له مرارة التيم وضيم الظروف .

حتى إذا ما استشاره ذلك الوالي الدخيل كوامن ذكريات الصغير ، هيج
منه شبلًا ضاريا ومجاهدا عنيدا لا يساوم في محاربة خصمه وأعداء وطنه
يقاتلهم بالناب والمخلب وما يقع في حوزته من سلاح يجهد ويحرص على
توفيره غير آبه بالنتائج ما دام قد أدى واجبه في الانتقام لوطنه وللأخذ بثأر
ذويه .

والقصيدة تعتبر صورة صادقة لاقتدار الشاعر على الشعر القصصي كما
تمتاز بالوحدة العضوية القائمة على عاطفتي الإعجاب والعطف لمواطنيه من
جهة وعلى الازدراء والكراهية للأعداء من جهة أخرى كما انها تنتقل من
الوصف الظاهري للأحداث الى تعمق العواطف والانفعالات الداخلية لغيث
ثم من البوح والجرأة التي لا تقف عند حد حتى لو عرضت صاحبها للغوائل
الى انطواء المستعمر على الحقد والنذالة والجبن والكيد في الخفاء ثم الى
التعبير عن أثر السم في داخل الجسد حيث قطع الكبد منه كما قطع وتينه
واشعل ضراما في شرايينه فاعقب ذلك تلويه وسقوطه ونزف الدم من فيه
يهتف الانتقام الانتقام بينما يتسم الأعداء في صمت ينم ابتسامهم عن فرحة
داخلية خبيثة .

هذه بعض آيات تلك الفريدة المهدوية :

(١) هو في الملجأ من دون اليتامى	دائم الصمت وقارا واحتشاما
واضح الجدد قليلا ما يرى	ضاحكا إلا إذا استحيا ابتساما

(١) الفترة الثالثة ص ٩ - ١٦

نظرة الأجلد يرتاد الحماما
حين يحتد إذا اشتدوا خصاما
بذهم حفظا وفهما وانتظاما
شيخهم عقلا وإن كان غلاما
واستواء كالرديني قواما

نافذ اللحظ تراه ناظرا
يتقي أقرانه صولته
هو في الملجأ أذكى طالب
فهو رأس القوم رأيا وهدي
دون تسع ناحف في صحة
ومنها :

سيد الاعراب معروفا هماما
مكرم الضيف كفيلا للايامي
تملا الوادي ثغاء وبغاما
خسة تنتقص البدر التامام

كان مسعود أبي في قومه
فارس الخيل غياث المحتمي
بارك الله له في ثروة
وله من بنت عم أخوة

ومنها ما وصف به الهجمة الشرسة القذرة لجيش الظليان على النجوع
الآمنة :

صرخة تنذر بالشر النياما
تسأ الرب صياحا وزحاما
يخبطون البيد في البر انهزاما
خف حلا والمطايا والخياما
شك فيه فتلقيه كراما
حلها غير رصاص يترامى
عيشة الذل فقد ماتوا كراما
فرت النسوة يحملن اليتامى

بينما الحي رقود إذ علت
ثارت الاطفال من مضجعها
لبسوا ثوب الدجى أيدي سبا
تركوا الاثقال والمال وما
ورأى الابطال أن لا
قيدوا أرجلهم صبرا فسا
حلها من ربة العار ومن
ما ترى في الحي حيا بعدما

سلكوا في كل شعب هربا يستجيرون من الظلم الظالما

ومشاهد القصيدة متعددة مترابطة لهذا نتقي منها بيت القصيد
وواسطة العقد الذي صور لنا صلابة الارادة وقوة التصميم على تنفيذ
ما يؤمن بأنه الحق وذلك الاباء الذي ذهب غيث شهيدا له والذي كان
مشعلا على درب الحرية الطويل ينير جوانبها للسالكين والذي يصور مثله
أمير الشعراء وقد ضرب الفرنسيون دمشق بالقنابل مروعين سربها مقتلين
أطفالها إذ يقول :

قال ما تصنع يا غيث بها قلوب كالحجارة لا ترق
وفيما يلي ذلك الحوار الجاد الدامي بين غيث والوالي بشأن مئة ليرة
إيطالية وهي كما نرى وكما عبر عنها الشاعر حطام تافه وفيه ما فيه من
استدراج قدر من مستعمر حاقد لثيم :

وللمستعمرين وإن ألانوار	قل لي الحق ولا تخشى الملاما
قال غيث وبدا الجدد على	وجهه يشبه ليثا أو قطاما
إن لي ثأرا إذا أدركته	لا أبالي بعد إن ذقت حماما
نظر الوالي إلى غيث ولم	يظهر الحقد ولا أبدى ملاما
ورأى اتباعه ما غاظهم	فتعاطوا نظرة كانت كلاما
عادة النذل اغتيال ولذا	جعلوا سرا له السُّمَّ طعاما
ما جرى في جوفه حتى سرى	في وتين القلب كالنار اضطراما
خر للموت صريعا يلتوى	يطلب الماء فييدون ابتساما
لم يزل ينفث من فيه دما	أسوداً من كبد ذابت رماما
يلفظ الآخر من أنفاسه	وينادي الانتقام الانتقاما
راح مظلوما شهيدا جاعلا	لفظة التوحيد لله ختاماً

والشاعر أحمد رفيق الوطني الغيور إذا امتزجت الوطنية لديه بالحنين في كثير من قصائده أو بوصف المعارك وآثام المستعمرين فكثيرا ما كانت تبرز في صورة الشكوى الخالصة من المستعمرين وأشياءهم وهي اما شكوى جادة متشحة بظلال قاتمة حالكة السواد في نفسه وتعبيرا عن احساسات المخلصين من أبناء الوطن يندفع الشاعر في وصف واقعي صادق معزّن لما تردى فيه الوطن من سوء حتى ضاق به ابتأؤه الاوفياء المتشبثون به مهما هددوا به من تقيل أو زج في غيابات السجون لما عانوه من ظلم وحيف وتعقب وإذلال الى درجة المساواة بأحقّ الدخلاء من اتباع المستعمر وادوات قسعه من يهود وأحباش وصوماليين إذ يقول :

(١) إلى متى نحن في هم وأوجال	نحيا على الضيم في سجن وأغلال
في بلدة كوجار الكلب منزلة	ضاق بنا بين أعداء وجهال
هانت علينا وقد كانت محبتها	فرضا على كل حر النفس مفضال
فالقبر أفضل منها للكريم وقد	ساماه فيها يهودي وصومالي
وربما هان خطب النازلين بنا	لو لم يعززه خطب الصحب والآل
نصف البلاء أتى من هم غاصبنا	والنصف منا بأحقاد وأذحال

ويترسل الشاعر في وصف مصائب الوطن من بعض افراده الذين باعوا ضمائرهم للمستعمر نظير ما يتقاضونه من منافع مادية ذلت من أجلها رقابهم وديست كراماتهم وبيعت ضمائرهم بأبخس الاثمان والذي آلم الشاعر ونكأ جراحات قواده أن يطعن الوطن من بعض أدعياء الدين والشرع الحنيف ، فهذا قاض انفاق مع رغبات المستعمر لدرجة مهينة حتى فقد شخصيته وما تنص عليه مبادئ دينه الحنيف الداعية الى جهاد الكلمة وهو

(١) من مذكرة لكاتب المقال قررت على السنة الرابعة كلية اللغة العربية بالبيضاء .

أفضل الجهاد لانه يذل المستعمر المتغطرس وإذا الشاعر يحصي على ذلك
القاضي آثامه ويسخر منه في صور أدبية لاذعة مستعملا الالفاظ العامية
التي يرى أثرها القوي في قتله قتلا أدبيا لينزجر سامعوها ممن بقيت لهم
بقية من حمية عربية تحول بينهم وبين السير في ركاب المستعمرين يترسل
الشاعر فيقول :

قاض قضى الدهر أن تشقى البلاد به	من جور حكم واغفال واهمال
يرضى بما يغضب المولى ويسخطه	إن كان في ذاك ما رضى به الوالي
يكاد يسجد للحكام مرتعدا	من جنبه بين ترحيب واجلال
لو أنهم أمروه أن يبيع لهم	نساءنا لأتى بالنص في الحال
أفتى بفطر لاشرار تقاتلنا	مع العدو وباع الدين بالمال
قد أذهب الطيش عنه كل هيئته	فصار كالقرد يجري بين أطفال
يهز لحيته في كل مجتمع	كالتيس غطى على القرنين بالشال

فرحة العودة وجهاد في سبيل الوحدة

وتدور الايام دورتها « وتلك الايام نداولها بين الناس » ويعود الشاعر
وقد امتد به العمر حتى شهد مصرع البغي واندحار المستعمر ذليلا صاغرا
مهزوما مشيعا بازدراء الشاعر وسخريته من غروره الزائف إذ يقول من
قصيدة مطلعها :

إذا اتلف الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

يعود الشاعر وقد ملأ السرور والابتهاج أقطار نفسه حتى فاضت
بفرحة الاياب جوانحه وتدفقت الفرحة أنعاما عذبة رفاة على أمواج
الشعر العلوية الآخذة بمجامع الافئدة تحدوه الاشواق وبشائر الامل

الباسم تستحثه السير وتذكى في نفسه مضاعفة الجهاد الحقيقي الذي يطلبه الوطن من المخلصين من ابنائه وطبيعة هذه المرحلة من مراحل الجهاد تحتم التبصير بخداع الاعداء مثلين في حكومة عهد الادارات ودعوة ابناء الامة للالتفاف حول الرأي الداعي الى وحدة الوطن وعدم الاصغاء لمن يدعون الوطنية ويحاولون تصديق الوحدة لنيل أطماع شخصية يضحون في سبيلها بمكاسب الشعب وآماله في الوحدة وهو يخلص الوطن في هذه المرحلة كما أخاص له في العهود السابقة وهو يصدع برأي الحر الجريء فيرمي بالخيانة والردة كل من عمل للفرقة التي لا تخدم إلا أعداء الوطن أو أعاق السبيل للوحدة ويرى أن سبيل النجاح في تحقيق هذا المطلب الوطني لن يكون الا بجمع الكلمة واتحاد ابناء الوطن فاما نجاح يحقق الآمال أو موت جماعي في سبيل تحقيقها وهو يرى أن هذا التحقيق ممكن كل الامكان لمواطنين أكدوا شجاعة الآباء والاجداد بدفاعهم عن العرين ودحر المستعمرين •

ولقد تجلت فرحة الشاعر بالعودة وحماسته للنضال في هذه المرحلة في براعة اختياره لمجزوء الكامل وما يوفره للعواطف من انطلاق حر وبما يتناز به البحر من حيوية الحركة وتدفق النغم الموسيقي المصور لخصب العواطف وسرعة تلاحقها وارتفاع فورانها وهذه بعض ابيات القصيدة التي كانت أول قصيدة له في رحاب الوطن بعد عودته من تركيا سنة ١٩٤٦ م :

(١) رجع المطوح من بعاده	عاد الغريب الى بلاده
الحب يفعم روحه	والشوق يلهب في فؤاده
وبشائر المستقبل الزا	هي تضاعف من جهاده
ليرى حياة حرة	هي وحدها أقصى مراده
كانت مناه وكان من	جرائها سبب اضطهاده

(١) ديوان رفيق ج ٢٧/١ - ٢٨

ومنها :

ظلم العدو وجوره	بلغ النهاية في اشتداده
قد صر لكن لم يكن	بأضر من عدم اتحاده
من ذا الذي يدعو الى	تقسيم جزء وانفراده
تفريق « برقة » عن « طرا	بلس « خروج عن سداده
ما تلك غير جناية	تأتي على باقي عتاده

ومنها :

فاحكم على المنشق عن	رأي الجماعة بارتداده
وعلى السر ليل نف	ع بالتزعزع في اعتقاده
وعلى المشاغب للمرا	تب بالمصيبة في رشاده

الى أن يقول :

فاذا أردتم نجحه	فيما يحاول من جهاده
كونوا جميعا قوة	لا كل فرد باجتهاده
إما الحياة معا وإما (م)	الموت في سبل اتحاده

وقصائد الشاعر الوطنية أكثر من ان تحصي وهو فيها وطني غيور
وخشم عنيد لا يقبل المساومة ولا تأخذه في وطنيته لومة لائم ولا يخشى من
متجبر عقابا فهو مثلا في قصيدة له بعنوان ايقاظ وتحذير يهز الشعب هذا
عنيفا ليفيق من سباته وليبصر ما يحاك له من مكائد وما يحيق بوطنه من
أخطار وهو يحذر من فئة اتخذت من الدين ستارا لتخدع به عامة الشعب
تلك الفئة التي خانت يوما وحكمت في الشعب فعسفت ومالأت المستعمر
ليل الاموال والرتب وهي آثمة في ادعائها الوطنية بعد خيانة وهو يضرب

مثلا قاسيا فيه بشاعة هتك العرض الذي لا يعاد اليه شرفه مهما أظهر صاحبه من توبة وصلاح فهو مأجور لا يخلص إلا لسيده المستعمر الذي اشتراه بالاصفر الرنان وهويتهكم بمن يمني نفسه باستقلال برقة ثقة في وعود بريطانيا ثعلب السياسة الاستعمارية الخبيث الذي ظهر صدق وعوده في تفريق السودان عن مصر والهند عن الباكستان ومازالت يدها الآثمة مخضبة بجراح فلسطين العربية .

ولهذا فهو يحث على اليقظة وعدم الاغترار بغير المسلمين ويدعوهم الى الاستعانة باخوانهم العرب الذين تمثل الجامعة العربية ويحضهم على التمسك بالوحدة والاعتصام بها للنجاة من كيد الاستعمار مثلا في الادارات البريطانية والفرنسية والايطالية ، يقول الشاعر وقد جرت فيه روح مشابهة لروح الشاعر أبي القاسم الشابي مع اتزان هو ثمرة تقدم السن في هذه الفترة :

(١) ألفوا الكرى واستعذبوا الأحلاما	(حرك ^(٢)) لعلك توقظ النواما
يا ويح هذا الشعب طال رقاده	فمتى يهب من الرقاد قياما
ومتى يفتح عينه متنبها	لخرعيلات الفاسدين ذماما
المدعين بباطل وطنية	راحوا بها يتصيدون مراما
يا أيها المتزعمون وما لكم	حق يخولكم لذاك مقاما
لستم بأهل أن تسوسوا أمة	لم ترضكم لأموورها قواما
للشعب في هذا الزمان ارادة	تملي الحقوق وتصدر الأحكاما
عصفت بسيطرة الملوك ولم تدع	لتحكم المتجبرين دواما
صارت أمور الناس شورى بينهم	لا يملك الباعي لهم إرغاما

(١) الديوان ج ١/ ٣٧ - ٥٨

(٢) حرك كلمة عامية المقصود منها ابعث الالم في الجسد

في سيرة (الدوتشي) (وهتلر) عبرة
وإذا استبد الفرد بين جماعة
لمن استبد وسفه الأحلاما
كانوا وان سعدوا به أنعاما
إلى أن يقول :

من ظن أن على الوظيفة رزقه
ومن ادعى الإخلاص بعد خيانة
إن البكارة إن أزيلت مرة
يا قوم إن بلادكم ليضرها
في الهند والسودان موعظة لمن
الغرب متحد على استعبادنا
لا تأمنوا إلا لتابع دينكم
شدوا (بجامعة العروبة) أزركم
عبد العبيد وناصر الظلاما
وطنية فقد ادعى آثاما
لن يسترد لها العلاج ختام
أن تقبلوا لمصيرها أقساما
جعلوا بديل الاتحاد خصاما
فعلا ، ومختلفون نحن كلاما
ممن يحب الشرق والإسلاما
وتمسكوا بالوحدة استعصاما

وكان وطنية الشاعر وصراحته قد اساءت الكثيرين ممن أقض
مضاجعهم نقده الوطني الجسور فأغروا به من يهجوهم فارسل قصيدته « في
سبيل الحق » مهددا منذرا أولئك بأنه لما يتبدى بالنقد الحقيقي لأمثالهم
وانما كانت قصائده حتى هذه القصيدة مجرد تقديم نصح صادق مخلص
غير مجامل ووصف حقيقي لكثير من الأوضاع غير السليمة التي ظلم فيها
من نصبوا انفسهم قواما على شؤون الرعية فاستباحوا حقها وعدوا
مصالحتها وأنه سيدافع عن كرامته وكرامة وطنه ومواطنيه بمقول يصمي
الخصوم ويسم أنوفهم بمياسم الذل والهوان وأن مثله من لم يخش عواقب
النقد الوطني في أقسى عهود البطش الايطالي إبان حكم العتاة المتجبرين
من الطليان مثل بالبو وديونو ووكاري لا يخشى أن يجهر برأيه في شراذم
باعث ضمائرهما بثمان بخس دراهم معدودة •

وتهكم بخصومه من ساسة لا ضمائر لهم واستفسر عن استيائهم أهو
 أن الشاعر قد كشف نواياهم أم هو لأنه نصحهم بأن حرية الشعب ليست
 مجال مساومة فلن يستبد بها فرد أو جماعة غير حرة في ارادتها وضمائرها
 وأنه هددهم بأن الشعب سيصدر في أمثالهم حكمه كما أصدر الشعب
 الألماني حكمه في عمدة النازي الذين استبدوا بإرادة الشعب وزجوا به
 في أتون حرب أحرقت زهرات أبنائه كما أورثته الهزيمة والعار • من أبيات
 القصيدة قوله :

(١) لم أبتدىء بعد في نقدي وانكاري
 صرحت بالحق في رفق فضج له
 قالوا: قد استاء بعض الناس قلت لهم
 مهلا رويدا ستأتيهم « كقنبلة
 قيل الخفافيش قد قامت تناوئني
 (تعدو الذئاب على من لا كلاب له
 وهل أبالي بغمز الليل حين وشى
 ضرب المسامير داء من أصيب به
 من ساءه منطقي (فلينفلق) حنقا
 لم أخش (بصاصة) الطليان ترصدني
 نازلتهم لا أبالي سوء عاقبة
 فكيف تطلب مني الصمت شرذمة

لما أشاهد من ظلم ومن عار
 أعداؤه وانطوا مني على ثار
 (العير يضط والمكواة في النار)
 ذرية « تنسف الطغيان أشعاري
 (قلت الفراشة قد تدنو من النار) (٢)
 وتتقي صولة المستأسد الضاري
 بي راقص عند طبال وزمار
 فليس يشفيه الا ضرب مسمار
 أو فليمت كمدا من غيظه الواري
 أيام (بالبو) و(ديبونو) و(وكاري) (٤)
 ولا عقابا ولا تهديد جبار
 باعت ضمائرها جهرا بدينار

(١) الديوان ج ١/ ٣٥ - ٣٦

(٢) لابن زيدون

(٣) لأبي ذؤيب الهذلي

(٤) من أشرس ولاية برقة من الطليان

الى أن يقول :

أتعلمون من المسؤول بعد غد إذا وقعنا معا في كف غدار
تذكروا عمد النازي وما حكموا به عليهم ودانوهم كأشرار
لا بد للشعب من يوم يحاسبكم على حقوق له باءت بأضرار

ونلاحظ أن الشاعر قد كان منفعلا انفعالا صادقا عبر عنه بجرأة
وتدفق جيشان فظفا على سطح ذاكرته الواعية الحافظة كثير من محفوظه
من التراث العربي على مختلف عصوره كما ضمن القصيدة الكثير من
معارفه الحياتية ومعاناته إبان عهود الحكم الايطالي الظالم وبعض الامثال
وكذلك العبارات العامية على ما في بعضها من سوقية قاسية ناسبت شدة
التهديد ووضحت استعداد الشاعر لان يكون حاد الهجاء مقذعة ان كان
خصومه لا ينزجرون إلا بهذا اللون من الهجاء .

ولكن وطنية الشاعر ليست كلها آلاما ودموع شوق وحرق اغتراب
وحينا هو ذوب الفؤاد الخفاق للوطن الجميل العزيز المحبوب أو نضالا
عنيفا في سبيل خير الوطن وعزة المواطنين وأمنهم ورفاهيتهم وحرثهم
يصارع من أجلهم طغيان حكام الاستعمار ويرaug عيونهم الراصدة
لحركاته المشنعة عليه لدى اسيادها بما لم يقترب . كما أنها ليست جهرا
بحقوق الشعب ودعوة مخلص للوحدة التي هي السبيل الوحيد لتحقيق
الاستقلال الحقيقي وسيادة الوطن والمواطن والتنديد ممن رغبوا في تفريق
وحدته لتحقيق مآربهم الشخصية مما يؤلب عليه الخصوم يرمونه بالزيف
والمروق بل كان للوطنية لديه مظاهر أخرى هي الفرح إن أصاب نجحا
وتقدم بخطوات الاستقلال التام أشواطا وهي كذلك تصوير للشموع التي
تحترق في صمت لتنير مشاعل الثقافة وتربية الاجيال كتصويره حال المعلم
وما صارت اليه من بؤس ودعوة صادقة للاخذ بيده وإزالة الضر الذي

حسه ودعوة صادقة لتعليم الفتاة وهي نصف المجتمع لتحرر من قيودها
• تنطلق ارادتها الحرة الواعية إذ هي فتاة اليوم وأم المستقبل ومعلمة
الاجيال الصاعدة هذا الى تصويره البارع لجمال طبيعة الوطن وتبصيره
بقيمتها وفي هذا تحبيب به لقلوب المواطنين واشادته بما توصل اليه العلم
من ثمرات العقول كالكهرباء والمذياع وهو بذلك يدعو للتسلح بالعلم
وسيلة الغرب للتقدم والقوة التي أذلوا بها الشعوب المستعمرة فاذا ارادت
الشعوب الحرية والسيادة في أوطانها فلا بد لها من التسليح بنفس ذلك
السلاح ذي الحدين القاطعين •

فها هو يطرب وينتشي لفوز القضية الليبية في هيئة الامم المتحدة
التي قررت سيادة ليبيا على أرضها وحققها في تقرير المصير الذي ترتضيه
ونوع الحكم الذي تختاره وهو يندد بالاعيب بريطانيا وحيلها الاستعمارية
القدرة ويحذر من المصير الذي آل اليه قطر الاردن الذي اتخذ من نفسه
مواليا لها وهي التي تحاول أن تعيد الدور مع ليبيا اذ قسمتها الى ثلاث
ولايات متنافرة ولن تكون نتيجة قبول فكرة التجزئة الا كما جنت
براقش كلبة الشؤم على أصحابها بنأ المشؤوم الذي أودى بهم إذ دل
أعداءهم عليهم فصبحوهم بكرة بعذاب وهو ينصح الشعب مخلصا لان
يعي نصحه ويحزم أمره وينفذ ما يمليه عليه ضميره من جمع الكلمة عمل
على الاستقلال الحقيقي ووحدة تراب الوطن فيقول :

فاليوم يوم السعد والافراح	(١) فازت قضيتنا بكل نجاح
دأبت تحاربنا بشر سلاح	نجحت بفضل الله رغم عدوة
قد أخلفت وتنبت « كسجاح »	كم مثلت فينا « مسيلمة » بما
يلوغ حق كالنهار صراح	حتى اذا فشلت وفاز نصيينا

(١) الديوان ح ٤١/١ - ٤٢ .

منعت مظاهره السرور لانها	وذلولها في الغم والاتراح
يا أيها الشعب اتبته لسياسة	فراقة تأتي على الارواح
ستكون حملتها على استقلالنا	ليضيع بين تخاصم وتلاحي
ولسوف تخذعنا بعهد مثلما	فعلت بشرق الاردن المجتاح
فتعيد سيرتها التي بدأت بها	يوم انتحت منا ثلاث نواح
ونكون نحن لها «براقش» ماجنت	الا على أصحابها بنباح
يا أيها الشعب استمع لنصيحة	بتدبر وافطن الى النصاح
عملا على استقلالنا في وحدة	في ظل عرش قائم لكفاح

ويصور الشاعر حال المعلم في واقعية وصدق وغنائية حزينة تقطع نياط القلوب لهذا الانسان النبيل الذي يحترق لاسعاد المجتمع دون أي انتظار لتقدير من افراده على مختلف مستوياتهم العقلية والاجتماعية كما يصور شقاه بمهنته النبيلة في اعداد الدروس ليلا وتوصيلها للاذهان نهارا وترقب زيارات المفتش وتوجيهاته غير السديدة ومعاونة ضبط الفصل وحل شكايات التلاميذ والتغلب على عبثهم وخبت البعض منهم وهو على كل هذا ملوم أشد اللوم مهضوم أشد الهضم إن سقط غبي منهم فاصبح الاتهام يشير اليه وهو الذي فاق غيره من ابناء مجتمعه فنصب نفسه لهذه المهنة الشاقة الرفيعة التي لا يقدرها قدرها ولا يحسن الثواب عليها إلا الله تعالى الذي كانت أولى آيات كتابه حثا عليها وتنويعا بشأنها « اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » والشاعر ينحي باللوم على المجتمع الذي لا يوفر للمعلم الحياة التي تليق بنبل رسالته بل لا يوفر له ما يوفره للجهال من الناس فلم يسلم المعلم من ازدراء المجتمع له وتقليلهم من شأنه على أنهم يجلون من هم دونه للشراء وإن كانوا خلوا من فضيلة وبر ويود له الانعتاق من حياته

التي استبعده فيها الدرهم لانه لا بد من توفيره لحفظ الرmq وإقامة
الأود •

فمن قصيدة له عنوانها حال المعلم هذه الايات :

(١) بحرفته أشقى العباد المعلم	يعيش فيقتضى عمره يتألم
يقاسي عناء الدرس طول نهاره	ويسهر فيما في غد سيعلم
يعاشر أحداثا فلاهم ذوو حجي	ولا هم مجانين فيبعد عنهم
يعد لهم أم للسفتش درسه	له الله كم قد بات يبني ويهدم
يعالج شطارا فيسكت واحد	لمكر ولكن عشرة تتكلم
ومن أعظم البلوى إذ كان بينهم	خبث على استاذه يتهم
يجود بأقصى ما يجيد ليفهموا	وما منهم الا أصم وابكم
ومن أغىظ الاشياء للنفس صرفها	قواها الى تفهيم من ليس يفهم
فلست ترى مثل المعلم صابرا	ولا مثله من يستشار فيحلم
له الله لا فيما يزاول راحة	لجسم ولا من ألسن الناس يسلم
سقوط بليد العقل من سوء حظه	يلام بلا ذنب عليه ويشتم
فما قدروا حق المعلم قدره	ومن حقه كالوالدين يعظم
كفى شرفا لاسم المعلم أنه	به كان «عيسى» قبل يدعى ويكرم
فلو لم يكن قدر المعلم عندهم	عظيما لما كنوا به حين عظموا
وهل جاد غرس العلم في عقل طالب	وأثر الا ما سقاه المعلم
ولكن هضم الحق في الناس عادة	يصاب بها الحر الاديب ويهضم
لقد حرم النعمى وأشقاء عقله	وأزرى به من في الشقاوة ينعم

(١) الديوان ج ١/ ١٣٨ - ١٣٩

فلا كان هذا العيش ان كان نيله يحتم أن يستعبد الناس درهم

حقا انها لمأساة انسانية كبرى تتسع حتى تشمل وطننا العربي الكبير
ان لم تتجاوز الى أقطار أخرى من ضاقت معارفهم فجحدوا حق هداية
البشرية في العيش الكريم الذي يرسمون لاجيال صوره وينيرون لبلوغها
دروب المدلجين ولم يكن أمير شعراء لييا هو الوحيد الذي أدرك هذه
الحقيقة الدامية فنبه لفداحة خطبها بل شاركه في ذلك أمير القوافي في أرض
الكنانة حين يعلي من قدر المعلم ويحث على تكريمه بتفصيل القول في بيان
نبل رسالته التي ارتقى بها شوقي الى مصاف الرسائل السماوية لانها
تخدم نفس أهدافها إذ يقول :

قم للمعلم وفه التبجيلا	كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجل من الذي	يبنى وينشئ أنفسا وعقولا
سبحانك اللهم خير معلم	علمت بالقلم القرون الاولى
أرسلت بالتوراة موسى هاديا	وابن البتول فعلم الانجيلا

واذا تركزت قصيدة أمير الشعراء على تكريم المدرس والمطالبة بحقه
في العيش الكريم دون الغوص الى أعماق مأساته الانسانية لان الشاعر رجل
مترف لانه ربيب القصر الخديوي فان شاعر فلسطين إبراهيم طوقان الذي
عانى من التدريس بعد أن تعقبه الاستعمار البريطاني ففصله من عمله في
الاذاعة المسموعة بالقدس وأجبره على مغادرة وطنه للقطر الشقيق العراق
حيث زاول حرفة التعليم على ما به من مرض مزمن في الفؤاد ، ان شاعرنا
هذا يتعمق مأساة المدرس في الوطن العربي ويرد على شوقي الذي يجذبها
دون تجربة بقوله :

ويكاد يفلقني الامير بقوله	قم للمعلم وفه التبجيلا
لو زاول التعليم شوقي ساعة	لقضى الحياة مناحة وعويلا

الى أن يقول :

وأتى ابن كلب بعد ذلك كله رفع المضاف إليه والمفعولا
يا من يريد الاتحار وجدته ان المعلم لا يعيش طويلا

ومن دلالات وطنية الشاعر وحرصه على التنويه بدور المرأة في رقي الوطن سواء أكانت مربية في المدرسة أم أما في البيت فهو يشيد بدورها الحيوي معلمة لزهرات اليوم وأمها المستقبل وانها تولي هذه الزهرات عناية ورعاية لا تقل عن عناية الام الحقيقية الرؤوم ورعايتها ولذا تثمر جهودها أزكى النبت وأطيب الثمار أخلاقا حميدة تسعد الأزواج وينعم بدفع حنانها الابناء وفنونا يدوية رفيعة تسمو بذوق الاسرة فترقى بذلك الامة وتحفظ على الاسرة نصيبا لا يستهان به من دخلها بما تتقنه من فنون الحياكة والتطريز وصناعة الملابس الى ما قد تتفوق فيه من رسم ونحت وموسيقى ترهف الاحساس وثوق الضمائر وتحجب في الفضائل والشاعر يرى أن الام نواة المجتمع صلاحه في صلاحها وأن تربيته على الاخلاق الفاضلة والادب الرفيع ضمان لها من المزالق الخلقية ومساعدة لها على الخروج لتأدية رسالتها نحو المجتمع خارج البيت مع طمأنينة الاسرة على صونها وعفافها اذ لها من سمو أخلاقها حارس أمين بل يسمو الشاعر بقيمة الام عندما يخلع عليها صورة القلب النابض الذي يهب الامم الحيوية والحياة فلا حياة للامم بغير الامهات الحصيقات الواعيات .

ولهذا فهو يحض على ضرورة تعليم الفتيات ما يغرس فيهن روح الامومة الاصيله اذ رسالتهم الاولى في الحياة هي انجاب الاجيال وتربيتها على الفضيلة وتبصيرهم بما يعود بالخير العميم على الاوطان ، يقول الشاعر من قصيدة بعنوان للام في نسلها نصيب :

نجاح تعليمنا البنات
 شكرا لسعي بذلن فيه
 فمن مساع « حميدة » في
 ومن فنون « بديعة » في
 ثمار غرس تعهدته
 تعهد النبت وهو غض -
 البنت كالنبت خيريه في
 أما ترى في الحصاد تبدو
 إن قيل إن الفتاة أم
 فسا رقي الشعوب إلا
 لسلام في نسلها نصيب
 هي النواة التي عليها
 تهذيب أخلاقها كفيل
 وهل مع الجهل ما يرجى
 البيت عنوان ما لقوم
 إني أرى للنساء فيه
 صلاحه لا يكون إلا
 فعلموهن ما يربي
 نريد منهن أن يكن
 دليل فضل المعلمات
 عناية الام مخلصات
 مطالب العلم ناجحات
 بدائع الفن باهرات
 بالرعي الحاظ ساهرات
 جناه يأتي بطيبات
 نجابة العرق والنواة
 خباثة البذر والنبات
 لامة في غد سيأتي
 بامهات مهذبات
 مالهها من تعودات
 سعادة الاهل في الحياة
 بصونها بين سافرات
 من وأدها بين جاهلات
 وما لشعب من الصفات
 وظيفة القلب في الذوات
 بهن إن كن صالحات
 فيهن روح المربيات
 ربات بيت وأمهات

الغزل في شعر الشاعر أحمد رفيق

أحمد رفيق رجل مثالي لا يرضى بما دون الكمال في السلوك
الانساني رأينا أنه قد بلغ في وطنيته آفاقا عليا قارع بها الخصم الالد
والعدو العاتي وفارق من أجلها وطنه وعاد اليه مرارا وهو على كلا حاله
مجاهد بنفسه ولسانه في سبيل الوطن لا يقبل في سبيل الوفاء له المساومة
ولا يخشى لومة لائم ويستعذب من أجله السجن والعذاب •

وهو لمثاليته لا يتكالب على المادة ولا حائل يحول بينه وبين تتبع
منابع الجمال في الطبيعة والانسان يعتبر من أبدع مظاهر الجمال فيها
وخصوصا إن اجتمع فيه جمال الخلق وجمال الخلق ، خفة الروح ورشاقة
الحركات إن مثل هذا الانسان لا بد أن يستهوي أحمد رفيق ويأسره
خصوصا إذا علمنا أن الشاعر قد نشأ بين أحضان الطبيعة الباسمة وبين
أعطاف النعيم الذي يخلو فيه بين الشاعر الصبي وبين رغد العيش في
أحضان المصائف الجميلة على سفوح الجبل الغربي وشواطئ الاسكندرية
ومصايف بنغازي ممثلة في جليانة وقهوة الشط وجنان المحيشي وغيرها
من مواطن الذكريات ومهابط الالهام •

وديوان الشاعر قد حفل بكثير من القصائد التي صور فيها الشاعر
مراحل الحب من بواكير تفتح عواطفه على استحياء في بواكير الشبان حيث
لم يكن الشاعر الناشئ يميز بين جد الحب وصدقات الطفولة البريئة
من شوائب الحب الجسدي الى تصوير صادق لتجربة الحب الناضجة وما
أحسه الشاعر أثناءها نشوة روحية ووصال وما تفتح الكون لناظري الشاعر
عليه من أسرار الجمال التي أضفاها الحب على عناصر الطبيعة العلوية

والأرضية من جمال القمر وحسن صورته على صفحة الماء الفضية كأنه يهدي الشاعر ومحبوبه صورة إحدى ذكريات حبهما الغالي لتكون عوناً لهما أن عبث يد الليالي بذلك الحب فابدلتها بالوصال هجرانا وبالصفو كدرا وإذا الشاعر في نشوة الحب وإشراق الحياة به يشعر أنهما قد ارتفعا إلى مستوى ما فوق البشر وحتى غدت ليلتهما هي ليلة القدر في طيبتها وعميم نفعها وإذا الشاعر يسطر في شعره ذكريات ذلك الحب بعد مرور تسع سنوات عليه لعلها سنوات هجرته مع والده للأسكندرية ثم عودته بعد اتفاق الرجمة سنة ١٩٢٢ م وإذا هو يسجل هذه الذكرى التي أعادت لقلبيهما ذكريات ما زالت حية ينبض بها قلباهما الفتيان والتي صور عنفوانها بأنها قد منعتهما عن الحديث ووردت خديهما بحمرة الخجل فقنعا بابتسامة أحييت كامن الذكريات ولاعجها فمما قاله الشاعر من قصيدته مبدأ الحب :

(١) عشقت وكنت لا أدري	ولا أعرف ما الحب
ولا يخطر في فكري	بأنني عاشق صب
لنا في ساحل البحر	لقاء ساعة العصر
نخوض الماء أو نجري	على الشاطئ لا ندري
بأننا للهوى نجبو	وإلا أننا صعب
فما زال تلاقينا	يزيد الحب تمكيننا
فنشعر في تناجيننا	بسر غامض فينا
كسر الكهربا صعب	تحير عنده القلب
وظل السر مخفيا	عن الإدراك مطويا
وشب الحب عذريا	قويا جارفا حيا
أليما مرة عذب	وحلو سهله صعب

(١) الديوان الفترة الرابعة والاختيرة ص ٢١٣ .

وكانت قبله حرى	كشفت بيردها السرا
عرفت الشعر والسحرا	وذقت بخمرها سkra
عرفت وليس لي لب	عرفت بأنه الحب
عرفت الحب لا يخفى	عن العينين في العين
وفي سحرهما خطفا	لوحى بين قلبين
وفي الثغر إذا رفا	عن الدر بسطين
رشت رحيقه رشفا	فكان السكر سكرين
سكرنا بالهوى صرفا	وبالمزوج بالبين
فكم كان الرضا عظفا	وكم نغصه العتب
ولكن لم أكن أدري	على ما مر من عمري
ولا أدرك من أمري	ولا يخطر في فكري
بأنى عاشق صب	فهل هذا هو الحب

فالقصيدة تجربة كاملة مبكرة للحب بما فيه من مشاعر غامضة تجذب
الإلف للإلف يذكيها التقارب وتكرس لها المناسبات أو تعمل الحيل لإيجاد
فرص التقارب وتملي الجمال الأسر ثم تقع التجربة بعد أن تهيأ الأجواء
لنضجها لقاء فاعجاب فتقارب فيكون أول رسول للغرام وأول سهام كيوييد
إنه قبله الاعجاب والوجد وعواطف الشباب المتدفقة التي تضع النقاط على
الحروف فإذا حقيقة الحب رفاة جليلة توضح غامض العواطف وتجلو
هويتها فإذا الشاعر وهو على أعتاب العقل والرشد وقد ودع سني ما بين
الطفولة والشباب الزاخر بالحياة يدرك حقيقة الحب الخالدة يدركها في
سحر العيون ما فيهما من بريق خاطف يعبر عن العواطف المشبوبة في القلبين
ويتذوقها في رضاب ثغر الحبيب يسكر بصفو العيش به راضيا وكدره
بهجرانه أو بعاده ويؤكد الشاعر أن هذه التجربة هي الأولى في حياته

العاطفية فهو ما زال غير مدرك ان كان ما مر به هو الحب .

وأحمد رفيق سعيد بتجربة يصورها في عفوية ويسر وتحرر قد اتخذ الموشح إطارا للقصيدة وان لم يلتزمه تمام الالتزام خصوصا في الفصل ما قبل الاخير الذي جعله خمسة أبيات بدلا من بيتين كان يعقبهما بالقفل ثم هو بعد ذلك يجعل خرجته فصيحة على غير نظام الموشح الاندلسي عند ابن قزمان الاندلسي وان كان هذا ليس بدعا في عالم التوشيح عند ابن سناء الملك وغيره من وشاحي المشرق .

أما في قصيدة « ما العمر إلا ليلة » فقد بدا الشاعر مجبا عريقا مولها فهو يدعو حبيبته أن يفتنما صفو ليالي الصيف الجميلة القمراء تحت ظلال الاشجار المزهرة حيث يعيشان صفو الدهول عن مادية الحياة وصراع المادة في ما يشبه احلام يقظة الحب وما عبر عنه الشاعر سكر خمرة الهوى الذي يضاعف منه نفح الفل وطيب وقت السحر .

والشاعر يصور تجربة الحب في قدر كبير من الرومنسية حيث يخلع مباحج حبه على الطبيعة ويبعث فيها أسباب الحياة وعواطف الانسان انه يجعل الطبيعة يخلع عليها من جمال الحب فالنسمات لا تتعطر بمرورها على الازهار المتفتحة الندية وقت السحر وانما هي عبقة برياء الحبيب وبعطر الحب . وإذا به لا يعزو تبسم المطر لما أصابه من دموع المطر وانما لا ابتهاجه بالانصات لاخبار سعادة الحبيين بلفتها له نسمات السحر التي ألت بهما وإذا البدر سعيد بسعادتهما كأن به حياء أن يعكر عليهما صفو خلوتها ويتعجب الشاعر من غفلته عن إدراك هذا الجمال الرفاف في عناصر الطبيعة الذي زاد عن سابق مألوف الشاعر منه ولا يجد تعليلا معقولا لهذا الجمال الساحر إلا جمال الحب الذي زين صفحة الكون في ناظره ويتعمق الشاعر في تشخيص عناصر الطبيعة عندما يعلل جمال صورة القمر على صفحة البركة

في تلك السحرة الحاملة بأن القمر قد تأتق في ابداعها ليهديها للحبيبين ذكرى
لحبهما الذي نعسا به في تلك الليلة ولتكون مسعدة لهما إن رميا بسهام
الفراق القاتلة • يقول أحمد رفيق :

(١) في سكون الليل في ضوء القمر
يا حبيبي قم بنا نحلم في
قم بنا نسكر من خمر الهوى
نسمات كلما مرت بنا
فاذا هبت مع الصبح لها
يا حبيبي كل شيء حولنا
ما ترى البدر بنا مبتهجا
يال له الليلة ما أجمله
أترى زاد على معتاده
فأنا غير ما كنا نرى
بلغ الحب بنا مرتبة
يا حبيبي وانظر البركة قد
أتظن البدر فيها إذ بدا
إنما أهدي لذكرى جنا
فلتكن ذكرى لنا مسعدة
ولتكن ليلتنا في عمرنا

في ليالي الصيف ما أحلى السر
يقظة بالحب في ظل الشجر
في نسيم الفل في وقت السحر
نقلت عنا لانتفاس الزهر
نفحة فهي وشايات الخبر
باسم يغبطنا حتى الحجر
يتلقانا يبشر في خفر
كيف عن عيني الى الآن استتر
أم هو الحب تجلى في البصر
فظننا أننا فوق البشر
بعدها لم يبق للحب وطر
عكس الماء بها ضوء القمر
عبثا مستجلبا منا النظر
من غوالي رسمه إحدى الصور
كلما جارت تصاريف القدر
ليلة القدر الى الفجر الاغر

أما قصيدة الشاعر جراح قلب وهي التي أنشأها سنة ١٩٣٤ م فهي

(١) الديوان ح ١/٧٥-٧٦ .

على حظ من الغنائية الحزينة والعفوية المحبة للنفوس الدالة على صديق
 العاطفة التي عبر بها الشاعر عن ذكريات صادقة قديمة لتجربة لم تمكنه الايام
 من اجتناء ثمارها فهو قبل هذه الفترة كان قد ترك الوطن ونزح تحت
 ضغط الجبروت الايطالي للمرة الثانية وكانت وجهته تلك بلدة جيحان فلما
 عاد الى بنغازي أبصر بمحض المصادفة حبيبا قديما أزعجته النوى عنه وكان
 لتلك المصادفة أثرها في إذكاء نار الذكريات والشاعر في هذه القصيدة يميل
 الى تصوير عواطفهما وتصرفاتهما العفوية إزاء مفاجأة لم يكونا يتوقعانها كما
 يصور أنها كانت أكثر جلدا على تحمل المفاجأة وقد مرت التجربة بسلام إذ
 طوى كل منهما على جراحات عميقة نكأتها المناسبة فتسامى على جراحه
 وانطلق لحالة ويسأل الشاعر أحقا ما صوره أم هو قول شاعر فيجيب بالمثل
 القديم إن القول ما قالت حذام ويترك الناس لظنونهم وفؤاده لجراحاته
 وآلامه فهو يقول :

ما بين بيت المحشي	وبين سوق الظلام
رأيت وجهها جميلا	أثار نار غرامي
حيته بابتسام	فلم يرقه ابتسامي
وأطرق الرأس واحمر	(م) وجهه من كلامي
لولا الحياء لما رد	(م) لي جواب سلامي
صد الحياء كلانا	عن بث ما في المرام
من بعد تسع سنين	مرت كرؤيا المنام
وتوبة وصلاة	موصولة وصيام
هاجت بقلبي ذكرى	سرت كسري المدام
فرحت أهتز سكرا	أميل للانهمزام
وراح أثبت مني	بهيبة واحترام

فلا تظن شرا تهوي به في الحرام
قالوا : أهذا صحيح فقلت : قالت حدام

ومهما يكن من أمر وسواء أحب شاعرنا فتاة بعينها منعتة التقاليد
العربية أن يبوح باسمها فضلا عن أن يلهج به شأن الشعراء الغزلين من
حسين مادين أو عذرين فقد ترجم الشاعر عن عاطفة الحب التي تسيطر على
عهد الشباب كما أكد أن يميل إلى الجمال ممثلا في شخص الفتاة وفي مظاهر
الطبيعة وفي الاخلاق أي أنه صور لنا تعلقه بالجمال المطلق الذي هو أحد
القيم الثلاثة الخالدة ووصف عواطف شبابه الزاخرة التي شبهها بالجنون
وأكد أنها تلفحه بنار الرغبات الجامحة فهو يقول من قصيدة بعنوان سينما
العمر :

(١) ويمر ريعان الشباب	ب يفور بالنزعات عاتي
يغلي الدم المهتاج	من شهواته المتوهجات
تتفتح الرغبات تن	تبه الحواس من السبات
تستيقظ الاحلام أحـ	لأم الهوى بالمغريات
تري الحياة كأنها	بعث الطبيعة للحياة
حيوية تسري كـ	سرى الروح في نشر الموات
بعث ، حياة نشأة	أخرى شعور بالفتاة
ميل إلى الجنس اللطيف	ف من الحسان الغانيات
ذوق لتأثير الجمال	على النفوس المرففات
زمن اضطرام عواصف	وخوالج وتنهدات
عهد ابتداء الحب عـ	د العشق عهد الذكريات

(١) الديوان ح ٧٩-٨١ .

كالسكر لا بل كالجنو	ن وحب ذلك من صفات
نار الشباب تؤج في	رغبات روح لافحات
حتى إذا نضج الشبا	ب وحان حمل الواجبات
وتمر أيام الكهو	لة بالفتور وبالاناة

حتى في هذه الايام التي يجب أن ينصرف فيها الشخص عن رغبات الشباب وصبواته فما زالت روح شاعرنا فيها من الحيوية والميل الى متع الشباب وصباياته الشيء الكثير من ميل للجمال وتحويم حول الفاتنات اللاتي يسلبن له ويهيجن عواطفه ونزواته وإن كان هذا لا يمنعه من تقدير قيمة الجمال المطلق الذي به يذل الانسان أسباب السعادة للآخرين دون انتظار جزاء •

لكنني شيخ ولي	روح الشباب ولي صفاتي
روح تلوب على الجما	ل تحوم حول الفاتنات
عقلي معي حتى يلو	ح الحسن تكثر عربداتي
سأعيش في مرح فلا	معنى ليأس في حياتي
أيقنت بعد تجاربي	أن السعادة في الحياة
طهر الضمير من الضغا	ئن والعداوة والشمت
ومجبة الاحسان من	غير انتظار مكافآت

ويرتفع الشاعر محلقا في سماء رفعة الحب وتقديسه في عجائبه التي ما تنفك الايام تكشف منها عن كل مذهل بارع ويرتقي به الى حد اعتباره سرا محيرا من الاسرار التي أودعها الله مخلوقاته هذا السر الذي لم يدركه العقل ولا كشفت عنه تجارب العلم ويخلع الشاعر كثيرا من صفات الكهرباء وهي آية عصر الشاعر على الحب إذ فيه اشراق المصاييح الكهربائية عند

انتظام اقطابها السالبة والموجبة ولسلطانه القدرة على القهر والبطش ما
للتيار الكهربائي من قوة صاعقة ويوضح الشاعر اختلاف آراء الناس فيه
ما بين مادح وقادح •

أما الشاعر فانه لا يساوي بسمو منزلة الحب ومقدار سيطرته على
النفوس شيئا آخر ويضرب مثلا لجبروت الحب ونفاذ سلطانه إذعان إدوارد
ملك انجلترا له وتنازله عن عرش ملكه الذي لا تغيب عنه الشمس في سبيل أن
يفوز بقلب من أحب متخليا عن سيطرة الملك وعز السلطان والشاعر يفضل
إدوارد على كل من انطونيو وكليوباترا اللذين لم يخلصا للحب بل أرادا أن
يجمعا اليه عز الملك وكذلك لم يكن مثله قيس الذي لم يضح في سبيل حبه
إلا بخيمة هزيلة لا قيمة لها ولهذا فقد غدا إدوارد ملك المحبين ومثلا
يحتذى في التضحية والبت في عظام الامور بل غدا الانسان الذي برئت
أخلاقه في رأي الشاعر من كل عيب فألقى بذلك المثل العربي :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معاياه

يقول أحمد رفيق من قصيدة له بعنوان « سطوة الحب » :

هو الحب ما تنفك تترى عجائبه	وتظهر من حين لحين غرائبه
هو السر لم يستكنه العقل كنهه	ولا العلم حلت منه شيئا تجاربه
له من صفات الكهرباء فعالها	إذا انتظم القطبان أشرق ثاقبه
إذا مس من تياره القلب «موجب»	تسكن حتى يسلب اللب سالبه
لسلطانه قهر إذا ما تحكمت	عزائمه لم يبق شيء يغالبه
تحيرت الافكار فيه فمادح	له ولاهليه وآخر عائبه
وما زال رأي الناس في كل حادث	كثير نواحي الخلف شتى مذهبه
دع الناس ماشاءوا يخوضون واستمع	عن الحب في التاريخ ما خط كاتبه

الى جانب الملك المنيع محاربه
وذي لجب في البر خضر كتائبه

تنافر جاه الملك والحب وانتحي
وباهى بأسطول على البحر حاكم
الى أن يقول :

سوى قلب انسان وسهم يلاعبه
أنا الحب فاعرف قدر ما أنت طالبه
دعائم عرش ركنه وجوانبه
(لزلزل من ذاك السرير جوانبه)
أو التاج فاستغنى عن التاج صاحبه
ولا سامعا ماذا تقول أقاربه
يقلده التاريخ والدهر واهبه
على الدهر انسان ولا من يقاربه
به سيم أنطونيو فشاعت معائبه
سقاها الردى حياته وعقاربه
سوى خيمة حذاء فيها مآربه
يشل كيف العزم تمضي مضاربه
(كفى المرء نبلا أن تعد معائبه)

هناك جاء الحب ما في عتاده
وصاح بجاه الملك صيحة أمر
فولى فراراً لم يعقب ولم تفد
فوالله لو لا الله ثبت ركنه
وقال ولم يستثن في قوله أنا
وودعه لا أسفا لفراقه
وراح بتاج الحب فوق جبينه
غدا ملكا للحب لم يأت مثله
تنزه عن عيب فلم يك مثلهما
ولا كليوبترا في الشقاء بجبها
ولا مثل قيس لافداء لجه
وأصبح في بت القرار قراره
ترفع حتى ما يقال لفعاله

وهكذا فقد ارتقى الشاعر بمكانة الحب في أسلوبه القصصي الجميل
الذي بحث في أعطافه التشخيص الرائع والحوار البديع واحيا في قصيدته
ميت الاحداث كما بدت فيها حصيلة التراث الادبي الذي أحسن الشاعر
تفسيره فأتى بالبديع الرائق من المعاني وبعد فلا مناص قبل اتمام حديثي عن
غزل الشاعر من أن أجعل مسك ختام هذا الغرض البارز من أغراض شعره

هذه المقطوعة التي عبر بها عن غايته الفنية من الحب ؛ إن الحب عنده مصدر تعذيب محبب إلى نفسه الشاعرة إنه باعث إلهام إنه حب عذري الى أبعد حدود هذه اللفظة إنه يكتفي من محبه بأن يصيره معلقا بخيط رجاء يرجوه عدم قطعه إنه يطلب منه ان يسمح بيده الحانية على كبده الحرى ان اشتدت عليها وطأة الحب ليدوق الحب في شتى حالات أهله حلوا في أوقات الوصال والشفاء من حريق الهجران وليدوق الحب ممزوجا صفو وصاله بمرارة الشقاء النابع من توجس القطيعة والشاعر على كلا الحالين هو الفنان العازف على أوتار الحب الشجية المحركة لوجدان البشرية إسعادا وإشقاء يرقق الوجدان ويعطف القلوب على جرحى سهامه بما يرتله من آيات الفن العلوي والنغم الخالد . يقول قطعته بعنوان لذة العذاب :

ابتسم واعبس ودعني	بين خوف وحياء
وارض واغضب وابتدع	في الهجر أسباب الجفاء
لا تواصلني وأطمع	ني ، ولا تقطع رجائي
وتداركني بعطف	حين يشتد بلائي
لأذوق الحب في لو	نين داء وشفاء
وأذوق الحب ممزو	جا بسعد وشقاء
ربما لذ عذاب	لنفوس الشعراء

الرثاء في شعر أحمد رفيق

أحمد رفيق رجل مثالي معجب بجميل الصفات ورفيع المزاي وهو رجل لامع في مجتمعه الليبي خاصة والوطن العربي عامة ولذلك فقد كانت له بالعلماء الافاضل العاملين صلات صداقة وربما صلات تثقيف وتوجيه لانهم دعوه ناشئا وشجعوا مواهبه الادبية كما أنه قد شارك بعضهم حرفة الادب والجهاد كالشيخ أحمد الشارف ثم هو بعد ذلك يقدر العباقرة الذين أدوا للبشرية خدمات جليلة في مجال الاختراع خصوصا إذا كان اختراعهم بريئا من أخطار الفناء والدمار ولهذا فسوف نلمس أن غرض الرثاء قد تطور لديه تطورا ملحوظا ان لم يكن في الاطار الفني ففي المضمون إذ تدرج من الرثاء التقليدي الذي يقتصر فيه الشاعر على رثاء من تربطه بهم صلات قوية من الاقارب والاصدقاء والناهبين من ابناء الوطن أو الامة العربية إلى ان يشمل رثاء العباقرة ممن أسدوا للبشرية أيادي بيضاء بما توصلوا اليه من اكتشافات علمية أو قد يرثي لمجرد الرثاء لاشخاص أعجب بفلسفتهم ومنهجهم في السلوك وبذلهم الجهد في تقصي الحقيقة واكتناهاها ولو لم يربطه بهم عرق أو وطن وانما مجرد الاخاء الانساني كرثائه دانو نزيو وقد بحث بها من جيجان الى مجلة ليبيا المصورة وهي تمتاز بصبغة فلسفية وتساؤل عن حقيقة ما بعد الموت وهو تساؤل طالما حير المفكرين فوققوا إزاءه حيارى ثم طووا جراحات الحيرة واللهفة الصادقة على اجتلاء تلك الحقيقة ثم ارتد إليهم طرف تطلعهم كليلا حاسرا وكان طابع الهدوء والتأمل العميق أكبر وضوحا من طابع الحسرة واللوعة على الفقيد الراحل .

فهذا هو الشاعر ينعى اليم الشيخ عبد الرحمن البوصيري ويصادف أن يحدث زلزال يوم وفاته فيجيد الشاعر استغلال هذه المناسبة ويرى أنها

من تكريم الله للفقيه الراحل فهو بعلمه العزيز وعمله المخلص على هدى عمله وبرجاجة عقله جدير أن تكون ساعة وفاته كساعة الرجفة يوم القيامة إذ أن ناعيه لا ينعم، شخصا عاديا وانما ينعم للناس العلم والاخلاق والفضل وسمو المنزلة فقد بلغ الغاية في الفقه والعدل في الحكم والذكاء في القضاء كان ابن أنس في العلم وعمر الفاروق عدلا ويحيى بن اكثم ذكاء في القضاء وهو الى كل هذه الخصال الحميدة جم الادب والحياء يعطي في مزح جدا يلهم التقوى وكان على غاية الاخلاص •

ويعجب الشاعر من اسبابه في سرد فضائل البوصيري وكان يكفيه أن يذكر اسمه ليعترف له بغاية الفضل الذي يدركه سائر الناس ولكنه يعلل اسبابه في احصاء فضائله أنه فرد من أمة بكتته لفضائله فاستحالت دموعه قريضا هو ذوب حشاشات استحال دمعا فقريضا • ولا شك أن في المعنى طرافة •

ثم يقول الشاعر كان الاجدر أن نبكي أنفسنا لفقده فقد افتقدنا علما وتقوى تعود على الامة العربية ونحن جزء منها بالخير والفضل العقيم •

ثم يعزي الشقيقة مصر في الفقيه الراحل بل يعزي مواطنيه ابناء ليبيا المجاهدة إبان وفاته فهو البدر الذي ان اعتراه السرار اختفى عن القطرين معا وهذا معنى جميل يدل على مشاركة وجدانية صادقة في المصاب الجلل •

والشاعر على يقين من أن الله جل وعلا سيكرم مثواه ويرفع منزلته حيث الفردوس مقر الاصفياء الأبرار في الرفيق الأعلى •

ويختم الشاعر مرثيته بمناشدة الرجل الجليل الراحل الذي سمت روحه الى أعلى عليين أن يسأل ربه - وهو مستجاب دون ريب لتقواه وصلاح دنياه - رحمة بما خلف على ظهر الدنيا من ابناء هذه الامة حتى تفرج كرباتهم ويشملهم الروح والسكينة يقول أحمد رفيق :

(١) نعموه وقالوا أرضنا اليوم زلزلت
أجب أيها الناعي وبين أموته
لك العذر في أن تدعي لوفاته
فقد وقعت في ساعة كان وصفها
فان قيل من حسن التصادف ربما
فما معظم الاحداث إلا تصادفا
نعموه وما للنعي شخصا وإنما
عظيم فقدنا فيه للعلم مالكا
الى أن يقول :

يجب في الله عند جليسه
وما كنت أدري أن في اللطف هبة
أطلت رثائي غير واف كأنتي
أما كان في ذكر البوصيري كفاية
ولكنني من أمة لفراقه
كما يقول :

شقيقتنا إن المصائب بيننا
إذا غاب بدر في سماء تظلنا
عليه سلام الله يوم وفاته
ألا أيها الشيخ الجليل وقد سرت
سل الله للباقيين خلفك رحمة

فقلت لهم إن المصائب أشباه
وقد زلزلت أم زلزلت حين وافاه
من الهول ما أمثاله العرف يأباه
مثالا ليوم ترجف الارض جراه
توافق ما لا يقبل العقل دعواه
مع البخت أو ما كان في مثل معناه
هو العلم والاخلاق والفضل والجاه
وللحكم فاروق الزمان ويحياه

مكارم أخلاق بها الدين حلاه
وفي المزح جدا يلهم المرء تقواه
أعرف مجهولا أسأت لعلياه
تبلغني مما أحاول أقصاه
بكت فجرى دمعي قريضا فسماه

سواء - كلانا واحد - شهد الله
ألسنا سواء كلنا قد فقدناه
ويوم يرى الفردوس في البعث مشواه
إلى الملاء الأعلى بك الروح أعلاه
تفرج ما هم فيه يرحمك الله

(١) الديوان الفترة الثالثة/ ٨٨-٩٠ .

ولقد رثى الشاعر تربه وصديقه الشيخ أحمد الشارف سنة ١٩٥٩ م
بقصيدة طويلة أربت على الستين بيتا من البحر الكامل والشاعر فيها وإن ابن
الفقيد بما يناسب منزلته الادبية والاجتماعية والدينية فوصفه بالفضائل
الخلقية من علم وتقوى وبغزارة في استيعاب التراث تبدت في انتاجه
الشعري إلا أن قصيدته راكدة عاطفة ولعل لظرف القصيدة أثرا في ذلك
فقد قيلت القصيدة والشاعر في الستين من عمره أو نيف عليها ولات حين
عاطفة مشبوبة جامحة والفقيد قد امتد به العمر ففارق الدنيا الى جوار ربه
وقد فقد بصره لتقدم سنه وشيخوخته فغدا رهين محبسيه فما هو الشاعر
إن أحسن استهلال قصيدته مع شيء من التجوز في نقد المطلع وما ضمنه من
قسم يؤكد ما ذهب اليه من رأي في فقد هذا الصديق الكريم فان مبالغته في
وصف تذارف العيون للدمع ثم العودة الى التعبير الحقيقي بصيغة الفاعل
بدل المفعول نزولا على ضرورة القافية التي استدعاها لقب الراحل الكريم
وإذا هو يكاد يكرر بعض أبيات القصيدة بدون إضافة معنى وبلا مبرر
كقوله :

(١) رزء يزيد القلب حزنا وقعه وتزيد حزن القلب لوعة آسف
وأنا الذي أسفي يؤرث لوعة في النفس ليس لضرها من كاشف

والشاعر يظهر أشد حزنه للشارف الذي يكبره سنا وربما قد رعاه
ووجهه في انتاجه الشعري وهو في طور تكوين شخصيته الادبية وكان
بينهما نوع من التلطف ورفع حجاب التكليف بين الطالب وأستاذه وهذه
عاطفة نبيلة من الشاعر إلا أن صياغته الفنية لم تكن بالمستوى الذي حلق
في أجوائه الشاعر في غير غرض الرثاء فكأنه يعالج أمراً عصياً قد تأبى عليه
وكلفه من أمره عسرا فكثر حشوه وتضمنت أبياته ألفاظا خلت من رواء

(١) الديوان الفتران الرابعة والاخيرة ص ٢٨٢ .

اللفظ الشعري وروثقة بل لقد تخطى قانون القافية عندما كانت لفظة عارف تتلوها عوارف ثم تكون قافية البيت الرابع هي عين اللفظة معرفة أي « العارف » وإذا هو يستعمل بدلا من منصف وهي لا تأتي بمعناها لغة وإذا به يورد هذا الشطر « ولوارد ولناهل ولراشف » مبتدئا بالاكتر فالأقل فما دونه وهو من الحشو غير المفيد فكل من ورد الماء فقد نهل وكل من نهل فقد رشف •

يقول :

لهفي ويا أسفي لفقدي سيذا	قد كان يرعاني بقلب عارف
ويجبني كآخ أو ابن مفعما	باللفظ يثقل كاهلي بعوارف
ويجلني متواضعا فأراه في	خلق الكريم ممازحي وملاطفي
خلق على علم يزينهما معا	نور الصلاح على وقار العارف
لهفي ويا لهف البلاد لفقد من	قد كان للمظلوم أعدل ناصف
قد كان بحر معارف لمؤمل	ولوارد ولناهل ولراشف
غاض الخضم فأني بحر زاخر	بالشعر يزخر بعده بلطائف

وعلى ذكر الشعر يستطرد الشاعر ليرىء الشاعر من هجنة الدعوة للتجديد التي لم تغن عن أصحابها ولا عن الشعر شيئا لأنها اسفت به وضيعت مضمونه وموسيقاه ومع ذلك كان الاجدر بالشاعر ألا يخرج اليها فهو في مقام أسى ولوعة وذهول لا في مقام عرض فروض ونظريات في عالم الشعر •

وعلى كل فقد اثنى الشاعر على الفقيد بثبات قدمه وعلو كعبه في القضاء والعمل بما علم من أحكام الشريعة وينتقل الى إبداء رأيه في الحياة وتفاؤله فيها وأخذها على علاقتها لان مصير الناس فيها الى الرحيل عن

الدنيا وإن امتد بهم العمر فقطعوا رحلة الحياة زحفا كزحف السلاحف .

وإذا الشاعر ينكر مسرات الحياة ويعيد ما سبقه إليه الاقدمون
كالطغرائي الذي لام نفسه على عدم الرحيل عن الحياة وانتظار دولة
الاوغاد والسفل :

ما كنت أؤثر أن يستد بي زمني حتى أرى دولة الاوغاد والسفل
تقدمتني أناس " كان شوطهم وراء خطوي إذ أمشي على مهل
هذا جزاء امرئٍ أقرانه درجوا من قبله فتمنى فسحة الاجل

وكأبي العلاء الذي يرى أن الروح سجينه الجسد تتعذب في ملازمته
وسعادتها في الانعتاق من إيساره ويرى أن الخضوع للنائم رجاء نوالهم أو
اتقاء شرورهم حزين ومذلة وأن الموت شفاء ناجح من عناء الحياة
وأوصابها .

ويختتم الشاعر قصيدته بالاشادة بترفع الشارف عن مادية الحياة
ويثني عليه لصبره على ضر فقد البصر وكثرة العبادة والتأمل في محبسه
ويترحم عليه ويرجو الله أن يحله دار المقامة حيث الظليل الوارف من
أشجارها والغض الجني من ثمارها .

ومن جيد معانيه في رثاء الشارف قوله :

الشعر مهما جلّ ليس وسيلة للفخر يوما عند مثل الشارف
الشعر لا أرضاه حلية عالم جبر على سرّ الشريعة واقف
وهو الذي إن قيل من هو (مالك) للعلم لا ترضى سواه لوصف
علامة القطرين واحد عصره في الجبع بين فضائل وعوارف
ولي القضاء فكان أخلص عامل بالشرع والقانون والمتعارف

وكأنه فيما يصيب بحكمه
أحكامه كانت رضى الخصمين في
أحكام مجتهد يؤمل أجره
الى أن يقول :

عين الصواب برى بعين مكاشف
حاليه للبادي وللمستأنف
من ربه لا من حطام وظائف

نأسى لفقد الاصدقاء وفاتنا
لو قلت من مات استراح لقل لي
أنا في الحياة على تغير لونها
راض بما قسم الإله مؤمل
ويقول :

أنّ الحياة مشوبة بمخاوف
متشائم تهذي برأي خارف،
متفائل لا أعتني بسفاسف
في الغيب خيرا لا مناص مصادفي

والله ما في العيش ما يأسى له
ماذا يسرك من حياة معذب
الروح في سجن من الجسم الذي
والجسم يسعد بالعذاب مشاركا
وبحسب من رزق الحجي قهرا إذا
ويختتمها بقوله :

متأمل لم يغترر بزخارف،
بالعقل في أغلال جسم راسف
لم يَعدْ عن مترهل أو ناحف
للروح فيما مسها من طائف
عاقبه بالعيش بين زعانف^(١)

عاش الفقيد مشرفا بفعاله
مترفعا عن زينة الدنيا وعن
كأبي العلاء تعبدا وتأملا
رحم الإله فقيدنا وأحله

مستغنيا بفعاله المتعارف
جاه وعن ترف الحياة الزائف
في المحبين قضى حياة العاكف
دار المقامة في ظليل وارف

(١) الزعانف : أوشاب الناس وطفامهم .

أما رثاء الشاعر للسختر العظيم ماركوني فهو ضرب من التقدير
 لمعاقرة الافذاذ الذين خدموا البشرية ومنحوها السعادة بالتمتع بشرات
 اختراعاتهم وما من رابطة صداقة أو جنس أو دين أو وطن توثق من عراها
 بحيث يصدم الشاعر بنعي الراحل فيتحرق على جسر التجربة العنيفة
 الصاعقة التي ترهف احساسه فيتدفق القريض زاحرا فياضا لانه ذوب
 ذوب الفؤاد الطمين وتهتان العيون المسهدة بلوعة الفقد ولهذا فقد كان
 رثاؤه بالاعجاب أشبه وبوصف ثرات مخترعة أوثق صلة ومع ذلك فقد
 كان على هدوء عاطفته حصيفا مجيدا سبك القريض على حظ وافر من
 الواقعية خصوصا عندما قارن بين فضل اختراع ماركوني الذي أشاع
 الثقافة ووثق الصلات العلمية بين شعوب العالم وأراحها من عناء الاتصال
 بالرحلة وأنقذ حائر السفن والمشرف منها على الفرق والفناء دون أن
 يشوب صفو ثراته شبح الدمار والإفناء الذي واكب اختراع المتفجرات
 والقنابل وتحطيم الذرة كما أشاد بأفاق العلم التي فتحتها مخترعه رحبة
 غير ذات حدود فاستحق أن يتمثل الشاعر في تأبينه يقول الشاعر رائيا
 « علو في الحياة وفي الممات لحق تلك احدى المعجزات »

يقول أحمد رفيق :

(لحق أنت احدى المعجزات)	(١) نظيرك نادر في الكائنات
بأي الكهرباء البينات	رسول الفن أنت ظهرت تهدي
يخلق في قوى متموجات	نقلت الصوت فهو بغير سلك
أميننا حافظا للرسلات	وأرسلت الصدى في البرق يسري
فزال بذاك تحريف الرواة	طوى الآفاق بين فم وأذن
تعم بسرعة كل الجهات	وأصبحت الاذاعة في مكان

(١) الديوان الفترة الثالثة/٩١-٩٣ .

فأغنت في الدعاية عن كثير
وتلك يد لنشر العلم جاءت
أمركوني رثيتك لاحترامي
وأنت أجلهم عندي لاني
نفعت الناس أجمع باختراع
فكم لك من يد كانت شفاء
وكم أشفت على عطب سفيز
ولم تك مثل من يسعى ليأتي

من الصحف العديدة والدعاة
بمعجزة تفوق المعجزات
وحبي للعباقرة الدهاة
رأيتك فوق هاتيك الصفات
خلا من كل أنواع الأذاة
لآلام البرية في الحياة
دعتك فكنت أسباب النجاة
بما يقضي على باقي الحياة

الى أن يقول :

فليتك طال عمرك كي ترينا
علوم العصر إن بسقت وأئت°
وصار الفخر في كل اختراع
فما لسوى علاك يقال حقاً

غرائب ما يزلن مكتمات
فأنت لها بمنزلة النواة
يعود إليك في ماض وآن
« علو في الحياة وفي الممات »

مما تقدم نلاحظ أن الشاعر أحمد رفيق قد كان ذا استعداد طيب
للرثاء له من تجاربه الشخصية ومن سعة اطلاعه على التراث ومن عمق
تأمله في الحياة والأحياء رصيد جيد يسعفه بالفكرة التي تثري تجربة متلقي
فنه وتوسع من نظرتة للحياة ولكن هذا الاستعداد يحتاج الى عمق الجرح
وأصالة الباعث على الرثاء حتى يحلق الشاعر في أجواء الرثاء الصادق الذي
هو ذوب النفس الطعين ونزف الجرح الكليم ووشيجة أصيلة المرابطة
الانسانية وهي دليل الاصاله في الفن وعنوان خلوده على الدهر كما بدا
ذلك في رثائه الشيخ عبد الرحمن البوصيري ومع ذلك فان عدد مرثيه التي

تضمنها ديوانه لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة إلا قليلا وهي قليلة إذا
قيست بوطنيته أو غزلياته أو وصف الطبيعة في شعره ومن الملاحظ أننا لم
نقف على رثائه لوالده في الديوان وحتى في كتاب « رفيق في الميزان » لمؤلفه
عبد ربه الغنای الذي حلل رثاء الشاعر على ضوء ثلاث قصائد من مراثيه
هي في البوصيري والفساطوي وماركوني ولعل مرجع ذلك الى روح الشاعر
الهائمه بحب الجمال مثلا في الطبيعة والمرأة والاخلاق الرفيعة والى معاناته
الخاصة وخروجه من وطنه تحت ضغط المستعمر اكثر من مرة فكان انشغاله
بتفكيره في الوطن والحنين إليه أثناء اغترابه أو هيامه بجماله والتفرغ
لقضيته ورفع شأنه بعد العودة إليه مما صرفه عن غيرهما من بعض أغراض
الشعر الاخرى كالرثاء .

وحتى مرثيته في جبرائيل دانونزيو التي بعث بها من تركيا الى مجلة
ليسيا المصورة عام ١٩٣٨ عندما بلغته وفاة شاعر ايطاليا دانونزيو لاتعدو
أن تكون ضربا من المناجاة لروح الشاعر التي صارت محررة من اسار
الجسد الذي يقيدھا الى الارض ويحجبھا عن معانقة الحقيقة التي طالما
تطلعت اليھا وتسامت لادراكھا فهي الآن أقدر منها في حياتھا على تجلية عدة
قضايا شغلت عقول الافذاذ من الشعراء والمفكرين في الوصول اليھا وهي
حقيقة الجزاء على الاعمال الدنيوية ومقابلة افذاذ الشعراء كأبي الطيب وأبي
العلاء وذاتني بل وماركوني والاستفسار إن كانوا قد غيروا بعض الآراء
التي اتخذوها قاعدة سلوكية لكل منهم سار عليها حتى فارق عالم الناس
الدنيوي كما يسألھا أن تخبر شوقي شاعر مصر غير منازع والزهاوي شاعر
العراق كذلك ان شعراء العربية من بعدهم لما يجتمعوا على إعطاء امارة الشعر
لشاعر فرد بعدهم .

إن القصيدة على جمال الفكرة التي يعالجها الشاعر بل على جمال
فكرة النقد للشعراء في عصره لا تدل على عمق تجربة وليس فيها من تشريح

العواطف الانسانية شيء يذكر كما أنها خلت من الابتكار فهو مسبوق
إليها بل قد تطرق لها بإيجاز في رثائه أحمد الشارف •
يقول أحمد رفيق :

(١) رفر في في عالم الارواح أصبحت طليقة
في خيال الشعر كم حومت تبغين الحقيقة
كنت في سجن من الجسم الترابي أسيرة
تستشفين حجاب الغيب من نور البصيرة
كان ذاك الجسم يخفي نزوة الروح الكبيرة
فانجلي الآن حجاب الشك عن شمس الحقيقة
فامرحي في عالم الارواح أصبحت طليقة
حلقي ما شئت ما أفسح أجواز السماء
بين مثوى شهداء الحب بين الحكماء
بين أرواح فحول الشعر بين العظماء
حيث لا حقد ولا غل ولا ثم فراق
رفر في في ملكوت الله أصبحت طليقة
بلغني عنا إذا لا قيت شوقي والزهاوي
أننا للآن لم نخلفهما « غير دعاوي »
يدعيها شعراء مالهم في الدهر راوي
تدعي مصر وسوريا فتغتازل العراق
كدراويش الزوايا فقدوا شيخ الطريقة

أرأينا كيف كان الشاعر بعيداً عن الوقوع تحت هول التجربة
ال عاطفية التي تذهله عن الحجاج والخصام والنقد بله التهكم والسخرية
بأناس يفترض فيهم التجرد من الدنيا للعبادة وأن يلهيهم ولو إلى حين فقد
رجل كريم أولوه ثقتهم ونصبوه شيخ طريقة في السلوك ونفل العبادة

يصيرهم الشاعر في صراع على رئاسة الدعوة كما تصارع زعانف الشعراء
على ذبوع الصيت وحب الزعامة الادبية •

ثم يودع الشاعر روح فقيده واصفا أنها على حظ من الرفعة ويدعو
لها بالمغفرة وحسن الجوار عند خالقها متناسيا أنها مسيحية أدركت
الاسلام فلم تعتنقه وأنها من قوم عتوا وبغوا في اعتدائهم على وطنه وأن
اغترابه هو جريرة من جرائمهم وإذا هو يجمعهم برغبة في الاستفسار عن
أمر خطيرة إن أفصح عنها رماه الناس بالالحاد لانهم أعداء ما جهلوا ولا
ندري عم يريد الشاعر أن يستفسر وقد استفسر عن كل ما حير الفلاسفة
والمفكرين من قبله وهو طلب معرفة ماهية الموت الذي به تفارق الروح
الجسد ثم ما حال الميت في قبره أي نعيم هو أم في شقاء إذ يقول :

ليت شعري ! كيف كان الموت؟ هل في الموت راحة
هل كما قالوا برجم الغيب أم تلك وقاحة
من لنا بالعلم يجليه يقين وصراحة
حبذا لو كان في الامكان تبيان الحقيقة
كنت أولى من يجليها وقد صرت طليقة
في أمان الله يا أيتها الروح الكبيرة
في أمان الله في الغفران في أحسن جيرة
أتسنى لو أناجيك بأفكار خطيرة
غير أن الناس يرمون بالحاد وكفر
كل حر الفكر إن الناس أعداء الحقيقة

الوصف في شعر أحمد رفيق

أحمد رفيق شاعر مولع بالجمال يتبعه أنى وجد ويهيم به على شتى ألوانه
ينشده في الطبيعة الارضية والسماوية في كلياته وجزئياته يصوره في الطبيعة
الساكنة والمتحركة في سكون الليل وفي ضوء القمر وفي الرئم يرعى تحت
أشعته الفضية ينشده في جمال الطبيعة العملاقة ممثلة ذرا الجبل الاخضر
الاشم وفي خضم البحر الابيض المتوسط بأواجه التي تعانق رمال الشاطئ
الحاملة مما يلي الشاعر وتعانق قبة السماء اللا متناهية من الطرف القصي
ينشده في حدائق درنة الفيح بعرائشها حيث تتدلى عناقيد الاعناب كثریات
بلورية صافية وفي شلالها حيث الامواج المتدفقة وحيث ينحل الضوء في
أشعة الشمس الى ألوان قوس السحاب كما يصور هذا الجمال في جزئيات
الطبيعة كزهرة الورد أو زهرة البنفسج ولا يضيق الشاعر حتى بالجانب غير
المشرق منها فهو يصور الصيف بما فيه من أسباب المضايقة للناس تصويرا
فيه طرافة الى ما في روح الشاعر من ميل للسخرية التي تفتر لطرافتها شدة
لذعها الشفاه وهو لا ينسى أن يصور مخترعات العصر التي اسدت للانسان
خدمات جليلة وذللت له العقبات اذ وصف الراديو تارة كما وصف سماعته
تارة أخرى وعلى العموم فقد كان للوصف نصيب كبير من شعر أحمد
رفيق تجلى فيه حسن التأمل ودقة الملاحظة كما بدا من خلاله مقدار حب
الشاعر للطبيعة وما يجده من روح في قضاء أوقات في أحضانها وإن اقتصر
في كثير من أوصافه على تصوير ظاهري صادق أضفى عليه من احساسه
بالجمال المتبدي لعين الناظر المتوسم دون أن ترتقي عاطفة الشاعر باحساسه
بالجمال الى درجة التقديس والامتزاج التام بالطبيعة حتى يصبح الشاعر

أحد عناصرها الدائرة في فلكها كما هو الحال عند كبار شعراء الطبيعة
الغريين أو العرب المهجريين مثل ايليا أبي ماضي أو أبناء الاقطار الشقيقة
كأبي القاسم الشابي فيما وصف به الطبيعة كأغنية الرعاة مثلا :

زار أحمد رفيق مدينة درنة ولدرة طبيعة جغرافية خاصة أسبغت
عليها من جمال الطبيعة في سحاء وبدون حدود فهي واقعة في حضن البحر
المتوسط وفي دال مروحية لاحد الاودية الكبيرة التي تتدفق فيها المياه من
ذرا الجبل الاخضر الى البحر المتوسط فهي أشبه بواحة خصبة تكتنفها
الجبال فتحميها من رياح الصحراء الهوج اللافحة وتخلي بينها وبين نسائم
البحر العلية كما أنها تمتاز بمياهها المتدفقة التي تنساب رقراقة تسقي
بساتين الموز والنخيل فتأتي باطيب الثمرات وهي متدرجة في الارتفاع حيث
تمتزج خضرة رؤوس النخيل وأشجار الموز بزرقة البحر وظلال الجبال في
عين الوافد إليها من عقبتها الشرقية أو الغربية وبعد كل هذا وفوقه فلدرنة
تاريخها الاسلامي العطر بجهاد الصحابة الاجلاء الذين أودعوا جبانة فيها
عرفت باسمهم ولهذا فقد حوت المدينة عناصر الجمال المادي والمعنوي الذي
انتشى به الشاعر فصوره تصويرا بارعا فيه واقعية وحب وهيام وإكبار
وتقديس فطالت قصيدته وحسن سبكها في جزالة ألفاظ وروعة تصوير وقد
ظهر أثر ثقافة الشاعر الاسلامية فيما أحسن تضمينه أبياتها من آيات قرآنية
كما تبدت حسية التشبيه كما وتجلت حيوية الحركة في الوصف وقوة
التشخيص إذ يصور حركة البحر مدا وجزرا مثل قوله :

منظر البحر من علو يثير الشـ	سر في النفس والغرام الدفينا
ضمها البحر من شمال فكانت	كاعبا ضمها المشوق حيننا
يعطف الموج كالمقبل للسا	حل في سرعة ويرتد حيننا

فها هو الشاعر مأخوذ بجمال درنة مقدس للخالق الذي أسبغ عليها

أفانين الجمال معمم هذا الجمال على كل ما تقع عليه عين الناظر من انحائها
 فيشب الى ذهنه أن مثل هذا الجمال في رقي مستواه وعموم شموله لا يكون
 إلا جمالا أخرويا ولا غرابة فالطبيات كما قال الله للطيبين وهذا حسن تعليل
 جميل ولفتة بارعة من الشاعر في تفصيل القول في وصف عناصر الجمال على
 عادته في حسية الوصف وقوة التشخيص واسباغ العواطف الانسانية على
 جزئيات الطبيعة كالفل والنسرين وغناء الطيور ويرخي الشاعر العنان
 لذكريات تاريخنا العربي المجيد ويقارن بين حالنا في تلك العصور الخوالي
 وما أُلنا إليه من ضعف وتخلف وفرقة ويفيق من سبحة ذكرياته فاذا الرفاق
 عنه لا هون وإذا هم يلومونه على ذهوله وشروده فيمحضهم النصيح بالسير
 قدما لان الحياة للسباقين في مضمار الرقي ولا يلبث الشاعر أن يعود لنصح
 أهل المدينة والحفاظ على جمالها وخيراتها ويطلب منهم تعويد جمالها يقول
 أحمد رفيق (١) :

قلت لما رأيت درنة ما هـ	لذا تباركت أحسن الخالقينا
إن هذا فضل من الله يؤتيه	هـ لمن يرتضي من الشاكرينا
هذه درنة التي كل ما فيـ	ها سرور لآعين الناظرينا
في حماها رأيت دار كرام	وكناسا وجنة وعرينا
أصدق القول إن أردت لها وصـ	فا وظني أني من الصادقينا
مثل الجنة التي وعد اللـ	هـ ثوابا عباده المتقينا
تحت جناحتها تفجرت الانهاـ	ر تجري فقلت إن الذين
أي صوب يمت صادفت ظلا	ومروجا خضرا وماء معينا
يعبق الورد في نسائمها وهـ	سي رخاء يزاحم الياسمينـ
وإذا ما تنهد الفل في الليـ	ل أغارت أنفاسه النسرينـ
ذكرتني الطيور وهي تغني	« قد قنعنا بحبه ورضينا »

(١) الديوان الفترة الثالثة/٤٢-٤٥ .

الى أن يقول :

وعلونا على يفاع فلاح	باسقات النخيل تهتز لنا
خضرة الموز والنخيل تليها	زرقة البحر فالجبال يميننا
منظر البحر من علو يثير الشع	ر في النفس والغرام الدفينا
ضمها البحر من شمال فكانت	كاعبا ضمها المشوق حنيننا
يعطف الموج كالمقبل للسا	حل في سرعة ويرتد حينا
وتجلت لنا بدائع صنع الل	ه تدعو لربها المؤمنينا

وينتقل الشاعر لوصف جبانة صحابة رسول الله الفاتحين وما تثيره من ذكريات العزة وما تبعثه في النفس من آلام عندما يقارن بين صدق بلائهم وضعف ما آل اليه الاحفاد ويحث على العمل المثمر الذي يعيد الينا أمجادهم :

زرت جبانة الصحابة فاستح	ضرت ذكرى أسلافنا الاولينا
وتمثلتهم وقد جاوزوا مص	ر الى أرض برقة زاحفينا
شيعوا الشمس للغروب الى فا	س وراحوا للهند مستقبلينا
وتلفت للرفاق فألفي	ت رفاقي عن حالي غافلينا
سألوني وقد رأوا ما دهى عة	لي فكان الجواب مني أنينا
قلت سيروا إن الحياة لسير	كتب النجاح فيه للسابقينا
سامحوني يا أهل درنة ما كا	ن لساني لما رأيت ميننا
فاشكروا ربكم لكم بلدة طيب	بة واسعدوا بها آميننا
عوذوها ، بقل أعوذ برب النا	س من شر أعين الحاسدينا

أما وصف شلال درنة فقد تألق الشاعر فيه وأجاد فيه إذ تمكن ببراعة
الاديب وحسن تناوله وشفافية روحه أن يبعث الحركة والحياة وعنفوان
الحيوية الصاخبة المتدفقة ممثلة في تدفق تيار الشلال من شاهق حبه
الطبيعة بالخضرة والنماء والجلال كما استطاع تزيين الوصف بما سكب
عليه من جمال الخضرة وبياض الفضة وصفاء البلور كما أمتع الاذن
بالاصغاء لتدفق المياه من الشاهق ولا يلبث هذا الصوت أن تخف حدته
فيتحول الى الخير الذي يشبه هذا الضرب المعين من الغناء وهو الزجل
الذي يؤدي في إيقاع جماعي متناسق وإذا هو يعين في الاصغاء وارهاف
الحس فيقع على صورة طريفة للمياه الجارية المتعرجة التي يصل بها حصارها
صليل الحلي بل هو أقرب الى وسوسة الحلي الحاملة تصدر عن قنوات من
فضة جارية تعب الجنائن من ذوبها رحيق الحياة وإذا الشاعر يحلق بخياله
الخيال فيأتي بأكثر من استعارة رشيقة رائقة عندما يصور القنوات بصورة
الأفاعي المنسابة في ثنايا الروض ولكنها أفاع من نوع فريد ينفع ولا يضر
ويسعد باللسنة تمج بالعذب السلسبيل الفرات لا السم الزعاف كما يصورها
بصور الخرد الجميلات تجر اذيال زينتها على الروض وتشرها على أرضه
بما تمنحها من خضرة ونماء وأزهار كما يطرف عندما يصف إحاطة عرائش
العنب بالسواقي إحاطة خلخال الفضة بساق الخريدة الحسناء • يقول :

(١) إذا زرت درنة لا تنس أن	تزور على الفور شلالها
فلن تبصر الحسن إلا إذا	رأيت المياه وسيالها
مياه تدفق من شاهق	كسته الطبيعة إجلالها
وغنت بصوت الخير الرتيب	ترتل للدهر أزجالها
تسبح لله شكرا على	جمال به زان سربالها
وجالت باللسنة السلسبيل	تجر على الروض أذيالها

ويقول :

ترقرق سائل بلورها يجوس الغياض وأدغالها

ويقول :

كسلسلة من لجين مذاب تعب الجنائن سلسالها
عروش أدارت على كل ساق من الفضة المحض خلخالها

وأما وصف الشاعر لرأس الهلال فله سمات الوصف السابقة لدربة والشلال فيه مزج وصف الجمال بما يشبه نزعة صوفية نابعة من شفافية روح الشاعر وتقديس خالق الجمال الذي ينتشي به ويصوره وتصويره ما يعتريه من خشوع وهو يقلب الطرف في عناصر الطبيعة التي خلبتة وإن كانت عناصر الجمال المتعددة في رأس الهلال قد مكنت الشاعر من التفنن في تصويرها فتارة يصورها التصوير الفوتوغرافي الأمين يصفها وقد صعد فيها الطرف فتبدو ذرا الشواهد وكأنها متصلة بالسحاب ويبصرها من الذرا فتبدو الاودية كالصلال المتقلبة المتعطفة وهو يقلب الطرف من عل وإلى الامام فيبدو له رأس الهلال من فرجة منبسطة بين شاهقتين حيث الخليج الذي اتخذ اسمه من شبهه الطبيعي لقرن الهلال يبدو منحنيا عند بداية الشهري القمري حيث يسمو خيال الشاعر إذ يصور الأرض بصورة المحبة فتحت ذراعيها ابتهاجا بفرحة اللقاء ويسمع الشاعر في الاحاطة بما يصف فيصف الروابي الخضراء والاشجار النامية منهتلة الاغصان كما يصف الظلال .

حتى إذا ما أخذ في وصف الشلال وصفه وصفا يمتزج فيه الخيال بالواقع وجمله بضروب من الجمال وكرمه بأفانين من التكريم إذ يحث الشاعر الوافد للشلال على أن ينظر إليه بعين تعشق الجمال وتقدره حتى يقف على أسرار جماله التي تحتجب عن بلداء الحس ولا بد له من زيارته في وقت صفاء الجو وإشراق الشمس رآد الضحى حتى يشاهده في وقت يشاكلة روعة وجمالا ليتم بذلك الانتشاء بجماله .

والشاعر يقرر أن جمال الطبيعة أجمع قد أفرغ في الشلال بل يسبغ عليه من سحر هاروت وماروت ويعقد مقارنه بينه وبين الكوثر من حيث عذوبته وبركته بل هو يصور خضرة ضخور الشلال وبللها بالماء بصورة نضرة الحياة ورفاهية العيش ويصور محققا تدفق مياه الشلال في مجريين بينهما حاجز صخري في شيء من التكريم والاعزاز عندما يشبههما بموقي العينين بينهما عرينين أشم أبي للضيم ويصف حركة الطير الدائبة على هذا الشريان الحيوي تحوم عليه سربا إثر سرب يحلق سرب المرتوي منه ليفسح المجال الآخر يهبط ليروي ظمأه وينقع غلته ويستقصي الشاعر جزئيات الصورة عندما يصور اصوات انحشرات الصغيرة المنطلقة في لحن موسيقي من ألحان الطبيعة مع الاصيل •

ويطرف الشاعر عندما يصور في ابداع ألوان الطيف الشمسي الذي يتولد من انعكاس أشعة الشمس الغاربة على الرذاذ المتصاعد من سقوط مياه الشلال المتدفقة من ذرا منبعه منحدره الى مجراه نحو البحر ذلك المنظر الخلاب الذي يأخذ بالالباب وترتد عنه الابصار كليلة حسيرة لتطلق العنان لخيال الرائي لان يسبح في عالم يزخر ويموج في جمال لا حدود له •

فما قاله الشاعر في وصف رأس الهلال هذه الايات :

(١) حباك الله يا رأس الهلال	يدا جعلتك عينا للجمال
مناظر للطبيعة قد تجلت	بآثار المصور ذي الجلال
تحس بروعة وخشوع قلب	إذا قلبت طرفك في الجبال
تخال وأنت في الوادي ذراها	بمنقطع السحاب على اتصال
وإن سعدت في الهضبات لاحت	تعايرج الثنايا كالصلال
تدور بجالتني خضر الروابي	من الشجر المهدل والظلال

(١) الديوان الفترة الرابعة/٦٩-٧٢

الى قوله :

جمال البحر من بين الجبال
هو الموصوف شكلا بالهلال
ذراعيها سرورا بالوصال
تري الشلال مندفق العزالي
إليه بعين عشاق الجمال
وقد متع النهار الى الزوال
وقد قرضته من جهة الشمال
فريد في الوجود بلا مثال
عنان شعور روحك للخيال
إلى صاف من العذب الزلال

ويظهر بعد ذلك من علو
فتبصر منه عن بعد خليجا
كأن الارض قد فتحت لضم
هنالك عن يمينك في انحدار
وأما منظر الشلال فانظر
إذا وافيته والجو صاف
وحف من اليمين شعاع شمس
رأيت السحر أجمع في مكان
فسبح للبديع هناك واترك
تذكر في الجنان الحوض وانظر
الى أن يقول :

وجاءا يجريان من الاعالي
تساوى في ارتفاع واعتدال
بدمع للسرور أو الدلال
يخلق سابق ويسف تالي
يجاوبه الصدى من كل جال
ترتله الطبيعة لليالي

يجود بكوثرين قد استقاما
وبينهما كعرتين أشم
بدا للعين كالموقين سالا
وحام الطير سربا بعد سرب
وصاح (الزيز) مطردا ازيزا
فغض الطرف مستمعا للحن
ومن وصف قوس قزح قوله :

رذاذ الماء يلعب في انهمال
من الالوان اشعاع اللآلي

وأبدع ما تشاهد من جمال
إذا انعكس الشعاع عليه أبدى

ترى لون البنفسج في اصفرار يخالط أزرقا في برتقالي
ورف الاخضر الزرعي يزهو بجانب حمرة ذات اشتعال
يظل العقل في وله ويسري الى الابصار تأثير الكلال

ولجلىانة لدى الشاعر اعتبار خاص تملأ نفسه بشحنات شعورية زاخرة
مضطربة متباينة الاحاسيس منها احساس بجمال الشمس الغاربة مؤذنة
باتتصار سلطان الظلام كقائد منهزم ينسحب في هدوء تاركا آثار الجراح
على أرض معركة يوم حافل بالصراع تبدت في حمرة الشفق واحساس برقة
الجو وصفاء السماء المشاكل لزرقه البحر الوديع حيث تتوالى أمواجه في
معاقتها لرمال الشاطئ وطبع قبلات الحب على شفاه الرمال الحاملة في غير
انقطاع وشفاء لأوام الحب العنيف بتأثير سائم الأصيل العليلة التي تذكر
فيه شوقه المتواصل لعناق الشواطئ الذهبية الناعسة والشاعر فضلا عن
التدبيج الذي يشيعه في وصفه الرائق لجلىانة ممثلا فيما يتخذه لهذه الألوان
من عناصر الطبيعة ممثلة في زرقة البحر والسماء الصافية أو حمرة الشمس
القانية في الغروب ولون الرمال الارضية الذهبية الى تحليل عناصر الطيف
الناتج عن الاشعة المرسله من ذكاء الغاربة وراء السحاب المتلي من عليائه
ليعاق الارض فتتدرج الالوان وتتداخل حمرة في صفرة زرقة يتقدمها
بياض السحب الدانية والتي تزيد من شدة بياضها مجموعة ألوان الطيف
من خلفها •

لا يكتفي الشاعر بهذا التدبيج بل يخلع على الطبيعة من العواطف
الانسانية ما يبعث الحياة في أعطافها فاذا الموج يولي لثم ثغور الرمال دون
إرواء لعاطفة الحب المتأججة التي أذكتها الناسمات فيه وإذا لون ذكاء الغاربة
يشبه حمرة الجلنار كما يشبه احمرار خجل البكر الخفيرة الذي يضرج
خدها الناعم المترف الجميل •

ويمزج الشاعر بين جمال الطبيعة وجمال المرأة الذي يزينه ويزيده روعة وتأثيرا في النفوس وتبدو قدرة الشاعر على بعث الحركة في الوصف عندما يصور تدفق الامواج لهذا الجمال البشري التي تمتطي أمواج البحر الحاملة ويثب خياله وقد تبدى له جمال الغيد من فوق الامواج ممثلا في الخصور والنهود والنحور للمقارنة بين صورة الطبيعة الكونية والبشرية وبين صورة الجنة التي وعد الله عباده المتقين وما فيها من حور وولدان وأنهار جارية •

ولكن نفس الشاعر التي لا تستقر على حال لا يرى هذا الجمال الاخاذ إلا زائلا فهو أشبه بشجرة وارفة في طريق الحياة الشاقة المضنية والانسان هو الحائز الذي ضل دليله « وهو العقل » الطريق في غيب الليل وظلمته الحالكة وما الانسان إلا مجهد نفسه وسينقضي عمره دون تحقيق مبتغاه •

أوليس كل هذا الجمال الآسر يوشك أن يتلعه ظلام الليل فلا يبدو منه إلا مقدار ما تبدو النجوم البعيدة لمحا وسط غيب الليل واستار ظلمته وإذا بالشاعر يفيق من ذهول على حقيقة مروعة هي أن العيش مهما امتد بالانسان العمر وتراخى أجله ليس إلا حلما طويلا وأن العاقل الاريب يجب ألا يخدع بالأمانى الباطلة •

ولعل للشاعر عذره في نظرته غير المتفائلة لهذا الجمال الفتان الذي أتقن تصويره فقد قيل هذا الوصف في سنة ١٩٣٦ م وما يزال الوطن يئن تحت وطأة المستعمر الغاشم لما يتحرر حتى تتغير نظرة أبنائه للمستقبل ولو أن القصيدة أو الموشحة بعبارة أدق قيلت بعد نيل الاستقلال لربما كانت على حظ أوفر من التفاؤل الذي يجب الحياة للأحياء ويزيدهم بها تعليقا ومن أجل اسعادها جدا وتفاؤلا • فما قاله الشاعر :

قف بجليانة إبان الاصيل وانظر الشمس قبيل المغرب

وانظر البحر له لون السماء حين رق الجو صفوا راق ماء
بتوالي الموج فيه كلما صفقت جانبه ريح عليل
راح يحكي راقصا من طرب

وعلى الساحل رنت نغمات وقعته بسمات النسمات
وترى الموج يوالي اللثامات دائم التقيل لم يشف الغليل
من ثغور بسمت عن ذهب

لضياء الشمس حين الشفق عكس ألوان حيال الأفق
أحمر في أصفر في أزرق جمعت في صفحة الجو الصقيل
خلف وتي من يياض الهيدب

ولقرص الشمس مالت تتواری جذوة تشعل فوق الماء نارا
تركت لونا يحاكي الجنارا أوحىء البكر في خد أسيل
ألهته قبله في لعب

ياله من منظر يسبي الحلوم رائع ينفي عن القلب الهموم
لو رأيت الغيد في البحر تعوم لرأت عيناك من كل جميل
شارداً في السرب أو في الربرب

يستخف الحلم منهن سفور لخصور ونهود ونحور
ها هنا الجنة ولدان وحور خضن في الكوثر أو في السلسيل
طافيات فوقه كالجب

الى أن يقول :

عادة الدنيا عبوس وإلغام ما لحال سر أو صاء دوام
نقضي أعمارنا دون المرام وبها الشوق لورد مستحيل
من سراب لامع في سبب

فإذا وصف شاعرنا الغزال تحت اشعة القمر الفضية الحاملة في سكون
الليل الشامل عدل عن الوصف الحسي للغزال كما اعتاد الشعراء إذ يصفون
حور عينيه ورشافة منظره وتلاعة جيده الى وصف أحاسيسه ورهافة سمعه
وشدة حذره من الغوائل والعوادي أن تغوله فتنعكس هذه الاحاسيس
لنفس قلقة مفرعة على ما يأتيه الغزال من حركات عفوية لا ارادية استجابة
لمعطيات حواسه فينص جيده الطويل المرتفع هنا وهناك مستطلعا حقيقة
ما يترأى لعينيه أو استجابة لسمعه كما ينشط في حركته لا يستقر في مكان
حذرا ونشاطا ويتعطف في مثيه لا يستقيم على قصد لانه يحس بخطر
يتربص به دون أن يحقق مكس ذلك الخطر حتى إذا مال البدر عن السمات
ليؤذن بالاختفاء وراء الشواهد نظر اليه الغزال في ارتياح وذعر ويتساءل
الشاعر عن ذلك الذعر الذي لا مبرر له في رأيه ؛ أفي طلعة البدر ما يريب
أم هو شعور الغزال بقرب اختفاء جمال مؤنس هو مصدر القلق وعلى كل
فلا بد للخلوقات من التسليم لمصائرهما ومن الدهول عن القدر المجهول
لتسعد بالحاضر وتسعد بصفوه وتتزود بطاقات تسكنها من متابعة رحلة
الحياة على متاعبها وآلامها ولهذا لم يلبث ذلك الرئم المفزع أن سادته
السكينة وأفرخ روعه فبدا رائعا يتدفق وجهه النضر جمالا وتوردا ونضرة
تشعر بفيض من الجذل وإن كان حيوانا بهيما لا يعبر عما يحس بلفظ أو
اتسامة ؛ يقول أحمد رفيق :

(١) يرتع في الليل راقه السحر
يؤنسه ضوءه فيفزعه
يتلع بالجد ها هنا وهنا
حتى إذا البدر مال قابله
أراعه أنه أسف الى
تهلل الحسن في ملامحه
كأنه وهو غير مبتسم
فبات يرقاه فوقه القمر
من ظله في مسيره الحذر
يأرن في خفة ويتأطر
ينظر في رية فيندعر
أن كان خلف الجبال يستتر
ورف بالحب وجهه النضر
يكاد منه السرور ينفجر

وليس غريبا على شاعر مولع بحب الجمال يتبعه حيث يوجد أن يعشق
الورود والرياحين وفيها من معالي الجمال ما لا حصر له فيها الحبيب وطيب
نشره ونقاء عرضه وفيها نضرة النعيم وصفو الحياة وحمرة الخجل وسورة
الانتقام وجمال الخلق الدال على جمال الخلق وتحيات المحبين مما لا ريب
فيه أن الورد هو أمير الزهور الذي فيه من سطوة الجبروت حدة الشوك
ومن رقة المحبين نضرة الاوراق وأن للزنايق مكائنها في عالم الزهر
والفضائل ؛ ليس غريبا والامر ما ذكرت أن يهيم شاعرنا بالورود والزنبق
والبنفسج وغيرها من الزهور ويصفها وصفها فيه الحب والهيام والتكريم
والحيوية والتديج والتشخيص وأن يبدو في وصفه ما لمسناه لديه في
الوصف عامة من حسية واضحة منطلقا مع روحه الطروب أقصى انطلاق في
بحر القريض حيث يبني القصيدة من مجزوء الرمل وإن كان يجدد في الاطار
تجديدا واسعا حيث يجعل الصدر من تفعيلتين والعجز من تفعيلة واحدة
مع حرصه على الاحتفاظ بالموسيقى العذبة التي تزيد من رونق الشعر
وروائه فيجعل الوصف على نظام المزدوج من الشعر ذى القافيتين الداخلية

(١) الديوان الفترة ٣/ ١٤٠ .

في نهاية الصدر والقافية المألوفة في نهاية العجز الذي بناه على تفعيلة واحدة فكان مشطور الرمل عنده عجزا وصدرًا بقافيتين متغايرتين يتجددان بتجدد أزواج الاشطار مما منح الوصف خفة وحيوية ترتفعان به الى حد الغناء والترقيص . هذا الى هذا الحشد الزاخر من ألفاظ الحب والهيام والتكريم بدا في تصغير التجب ما أحلى والالفاظ العذبة الرشيقة مثل ثغور الورد ، الانفاس الريا ، الطيب وذكرى الحبيب ، الرقيق ، العقيق عقد لؤلؤيا وحلي العروس فاذا هو متش بريا الورد وروائه سعيد بيسماته للشمس المشرقة ذاهل عن واقعه بعض حين ثم لا يلبث أن يفيق من عالم أحلامه الوردية ليقرر الحقيقة المؤلمة وهي قصر أوقات السرور التي تنفص عليه صفو تلك المرات فيذكرها ذكر المحزون الشجي المروع فيما يجب .

يقول :	(١) يا ثغور الورد هيا	خبريني
	أرسلني الانفاس ريا	وانعشيني
	واملئي الكون بطيب	يا ندية
	وابعني ذكرى حبيب	لي هدية
	لنسيم الصبح يوحى	بغرامي
	تسعدني روعي فروحي	في هيام
	ما أحلى نفحات	كالرقيق
	وأحلى بسمات	من عقيق
	قد كساك الطل عقدا	لؤلؤيا
	وحباك الفجر نقدا	ذهيبا

(١) الديوان الفترة ٢/٣٨-٣٩ .

الى أن يقول : ضحك الورد فجلى
عن همومي
ومضى ما دام إلا
بعض يوم
قلت ما اسرعه جاء
وراحا
ليتة زاد مساء
وصباحا
هكذا عقبى المرات
يصير
هكذا عمر المرات
قصير

أما وصفه للورد مرة أخرى ففيه الحب والتكريم والتديج إلا أن فيه
حسية مفردة صرح بالشهوة النارية واكتواء الوجنة بالقبلة على عدم جرس
كلمة اكتواء والتصريح بتهييج العواطف الجنسية والشهوة العاتية والبطش
الدموي الذي تتدفق له الدماء القانية وعلى العموم فقد افسدت حسية
المفردة جمال الوصف الذي كان فيه لا يعدو الوصف الظاهري للوردة
الحمراء القانية فاعتسف التفكير والذوق جريا وراء تحقيق التشبيه ولم
يسم الى جمال الوصف ورقة العواطف وعفوية الصور في الوصف السابق
فهو يقول من مجزوء الرجز :

(١) ياوردة الصباح يا ندية

يا بهجة الارواح يا حية

يا خجلا في وجنة الصبية

يا شفة شهوتها نارية

يا وجنة بقبلة مكوية

يذهب بي حسنك يا شذية

(١) الديوان الفترة الرابعة والاخيرة/ ٣٠٥-٣٠٦ .

وجسك النابض حيوية
إلى معان حلوة خفية
كأنها العواطف الجنسية
لو صورت ألوانها مرئية
فكان منها الشهوة العتية
وكان منها الغضبة الوحشية
لون الحياء حرة وردية
والغيظ أقوى حمرة دميمة
وللسرور صفة جلية

أما وصفه للزنبق ففيه الحب والهيام والاجلال وفيه يمتزج الواقع
بالخيال وروعة التشخيص إذ يسبغ عليها من أخلاق الخرد الحسان الطهر
ونقاء العرض وجمال الخلق والخلق وهيف القدر الرشيق وتصوير عواطف
الشاعر نحوها فهو لا يستحي في حبها بل وضها وعناقها والاتشاء بشرها
الطيب ووداعتها وعدم تخييبها مطلبه من شم وضم وعناق وإذا هو يشخص
رشاقة قوامها ونضرتها بأنها تتصرف تصرف الخريدة المتوددة التي تقف
لتحيتها بابتسام وإشراقة محيا وإذا الشاعر منتش بنفحها وجمال منظرها
فيعود الى تشبيهها بشبهات علوية يشبهها بالنور عند فلق الصباح الجميل
بعد أن قارنها بزهر النجوم وكان قد أسبغ عليها من التشبيهات المعنوية إذ
يصف نضاعة بياضها بالطهر والنور والعرض النقي فاذا هو يقول من مجزوء
الرجز :

(١) جيتي منزلها
أجهها من كل رو
لأستحي في جهها
بيضاء كالطهر وكالنو
طيبة الروح تفو
إذا أردت شمها
ولا ترد كف لا
حسن جمال خلقها
ذات قوام أهيف
قامت على ساق تحي
الى أن يقول :

تفقر عن مثل نجو م في فضاء أزرق
أشبه بالنرجس والفلّ (م) ونور الفلق
تلك التي همت بها تلك زهور الزنبق

فاذا طرق الشاعر وصف بعض مخترعات العصر وقليل ما أثبت من ذلك فيما وصلنا من شعره في هذا اللون من ألوان الوصف بدت لنا سمة الغالبة عليه وهي سمة الجنوح للخيال القريب والإطراف والجدة في الفكرة فهو لا يحتفل بالوصف المادي أو الفوتوغرافي الذي يبرز فيه الحجم والهيئة واللون والزخرفة وإنما يصف عن طريق الصور الادبية البارة عمل الأداة وأثرها في نفسه بل وما توحى به إليه .

يصف ساعة الراديو فيكتفي في خلق الجو البارع لاستقطاب احساس سامعه بعبارة موجزة تسلم الى أقصى مراده مثل قوله : صنعت

(١) الديوان الفترة ٢٤٣/٤ - ٢٤٤

باتقان عجيب فالاتقان إذ توصف به الصناعة رائع وزائد عن الغرض في التعبير عن التقدير الذي أحسه الشاعر إزاء تلك الاداة التي يصف وإردافه لذلك الوصف بوصف آخر « عجيب » فقد أكد به ما يشعر به من عاطفة الاعجاب والتقدير والاطراء بل ودعوة متلقيه لأن يشاركه تقديره وسعاده وهو يستع نفسه بالنظر لتلك الساعة وأذنه بالاصغاء لعذب ألحانها التي تعيد اليه ترديدها بل وعقله إذ يفكر في عبقرية مخترعها وما أسداه للبشرية من نفع وامتناع غير أنه لا يلبث وعلى غاية من الاسراع أن يحلق بأجنحة الخيال في أجواء الوصف فاذا بها توحى اليه بمعنى غريب معنى فعل الهوى في العاشق المحروم بكل ما في الحرمان من معان كإصابة سهام الحب أعشار قلب مقتل وتسديد السهام المصيبة من قرب ويتعجب من قدرة مخترعها على التنبيه لشيء كان الشاعر يظن إدراكه قصرا على أصحاب الافئدة المزهفة من الشعراء والادباء وليس ذلك السر الخفي سوى حرق الغرام في فؤاده التي تسثلها حرارة الكهرباء السارية في الساعة وهذه الزفرات الحرة والهتافات التي لا تنقطع تدعو الحبيب الهاجر لمعاودة الوصال « يا حبيبي » تصدر من الساعة مرددة تأوهات المغني المتقن لفن الغناء يقول الشاعر :

(١) للراديو ساعة	صنعت باتقان عجيب
مثلت صنعتها وقد	دلت على معنى غريب
فعل الهوى في عاشق	من جفوة الطبي الريب
فكأنها قلب المح	ب أصابه لحظ الحبيب
أو أن سهمها للفراق	رمى فأصمى من قريب

(١) الديوان الفترة الثالثة/ ٢٢ .

الى أن يقول :

يا ويحكم فطنوا لشيء ليس إلا لليب
ما صوروا إلا فؤا دي بات في حر اللهب
فالكهربا نيران وج هي والتغني من نحبي
يشكو جراح الحب في قول المغني يا حبيبي

اخوانيات احمد رفيق

ذكرت في أثناء البحث أن الشاعر ذو مثل عليا في وطنيته وصدقاته
مما صير الكثير من انتاجه زاخرا بالحنين للاصدقاء والتعلق بذكريات
عزيرة وأوقات أنس قضاه بصحبته مما أذكى في فؤاده الزفرات على
مفارقتهم كقوله من قصيدة بعث بها للشيخ موسى بن أحمد البرعصي
من جيجان :

(١) بعد السلام وتقديم احتراماتي أهديك يا سيدي موسى تحياتي
واشتكي حر أشواقي اليك فقد أذكاه في خاطري بعد المسافات
فارقتكم وفؤادي ما يفارقتكم قيدتموه بأسباب وثيقات
وفيها يقول ذاكرا حينه الى أوقات سعادته بإلمامه بأصدقائه من أسرة
آل عامر بالبركة ومصوراً ما يكنه اليهم من ود وجب واحترام متبادل
لذات الصداقة المنزهة من شوائب الغرض :

الى بني عامر أهل السماح لهم بي انشراح وبشرى في زياراتي
إني لأمدح أحبابي لحبهم إذ ما مدحت امراً من أجل حاجاتي
أقضي سويعات أنس في مرابعهم معززا يا لدهري من سويعات
معاهد لبلادي كنت ألفها خلفت وآسفي فيها لباناتي

(١) الديوان الفترة الثالثة / ١ - ٣

ولذا فقد استطاع الشاعر أن يخلد هذه العاطفة الاخوية الصادقة المشبوبة بأكثر من معنى رائع في قصائد حنينه من جيحان الى وطنه فكان فيها نغمات صادقة تذكر متلقي فنه بروح الشاعر الفارس أبي فراس الحمداني في روميته التي كانت فتحة لهذا الموضوع الجديد في الشعر العربي حيث كانت فيها صوفية محبة للنفوس تبدت عنها روح رقيقة شفافة تقدر الوفاء على البعد ويؤلمها أن يحول الاصدقاء مع الرياح المتحولة فيدمي ذلك فؤاد صاحبها فيكون ذوب ذمائه شعرا علويا مقدسا ومشعلا خالدا يرسم للأجيال معنى الوفاء يقول أحمد رفيق من قصيدته « حنين غريب لاوطانه » (١) .

يا من على البعد نهواه ويهوانا	لشد ما شفنا شوق فأضنانا
ذكرى عهد الهوى باتت تساورنا	يا من يبلغ للاحباب شكوانا
إنا بحكم الهوى صرنا ولا عجب	نزيد ذكرا لمن يزداد نسيانا
ما أنصفتنا الليالي في نوى تركت	جسما هنا وهناك القلب ولهانا
قلب أضرب به حب الوفاء فما	أخل بالعهد في حب ولا خاننا
واف على البعد لا النسيان خامره	ولا استطاع على الايام سلوانا
واها لذكرى حبيب كلما سنحت	كأنما قدحت في الجأش نيرانا
الى أن يقول :	

قد طوحتنا الليالي عن مواطننا	يا ويح كل غريب قدره هانا
لا عز إلا لثاؤ في مواطنه	إن الغريب مهان أينما كانا
(ما أقدر الله أن يدنى على شحط	سكان برقة من سكان جيحانا
عين الزمان أصابتنا فلا نظرت	وعذبت بصنوف الهجر ألوانا)

(١) الديوان الفترة الثالثة / ٢٧ - ٢٨ .

ومن منطلق الصداقة للافذاذ الفضلاء الذين خدموا أوطانهم فأخلصوا
وأسدوا للانسانية أيادي بيضاء فقد رثى الشاعر صادقا في رثائه نخبة من
خيرة مواطنيه في ليبيا ووطنه العربي الكبير ، رثى الشيخ أحمد الشارف
وابن بلدته الفساطوي والشيخ الاباصيري ورثى الزهاوي بل تعدى حدود
الوطن الى الانسانية الرحية التي لا تعترف بفواصل من جنس أو وطن
فرثى ماركوني وجبرائيل دانونزيو ونراه يشيد بموقف ملك انجلترا الذي
أنصف الحب وانتصر اليه متخليا عن التاج والصولجان ضاربا المثل الاعلى
في التضحية في سبيل هذه الرابطة الانسانية المقدسة الداعية للمساواة بين
الافراد حكاما أم سوقة رجالا أم نساء •

إلا أن الاخوانيات ليست نوحا كلها أو زفرات تذيب قلب الحديد
فحسب بل لها أوقات صفاء وأنس ومداعبة ومساجلة تنم عن روح مشرقة
بحب الجمال في العشرة واقتناص صفو الحياة والمساجلة في ضروب شتى
من العمل والقول ولقد كان لروح رفيق المشرقة ولحيويته الفياضة المتدفقة
ولنكتته البارة وسرعة بديهته واقباله على الحياة أثر أي أثر في أن يكون
له النصيب الاوفى والقبح المعلى من هذا اللون المشرق من الاخوانيات •

فها هو يرسل لآل عامر قصيدة تنوب عنه مشاركتهم أفراحهم بزواج
أحد أفراد الاسرة يرسلها من جيحان لعدم تمكنه من الحضور فيها الابتهاج
الذي غمر قلب الشاعر بالسرور وسرى عنه في مهجره وفيه الشاء على آل
عامر بما عرفوا به من التقى والكرم والعلم والغزير والصلاح ويشيد
بودادهم الذي سما لدرجة الاهل والقراة ويشكر لهم لفتتهم الكريمة في
دعواه لحضور فرحتهم ويعتذر بلباقة عندما يعبر عن منتهى سروره على
البعد وأنه إن غاب جسده لعدم تمكنه من اجتياز الآماد وعوائق السياسة
فان روحه بلا ريب حاضرة بينهم سعيدة بسعادتهم ويرجو لهم مخلصا أن
يجنوا ثمار هذا الزواج رجالا شجعانا ذوي إباء وأمجاد تتلأأ بها جباههم

شرفا وكرامة فمن أبيات قصيدته تلك قوله :

(١) فرح وفوز بالمنى ونجاح
دام السرور لكم ودام لبيتكم
مجد دعائمه التقى وعماده
رفع ابن عامر سمكه وأتمه
يا آل عامر ليس لي في مدحكم
أتم أحبائي الذين صفا لكم
إن لم يكن جسми لديكم حاضرا
جاءت رسالتكم لدعوة صاحب
الى أن يقول :

يا آل عامر بالبنين وبالرفا
تأتي نتائجه بكل غضنفر
كمحمد ومحمد وكأصلها
عقد تتم لكم به الأفراح
شهم الفؤاد جبينه وضاح
تأتي الفروع وتعظم الارواح

ولقد كان الشاعر عذب الفكاهة يصب شآبيبها على أصدقائه رافعا
حجاب الرسميات بينه وبينهم مقتنصا الفرصة إن سنحت فها هو يمر بدرنة
الشهيرة بموزها ولكن الشاعر ممنوع عن تناوله والإصابة منة لقرحة
بمعدته فلا يفوت الشاعر هذه الفرصة ليصور حالته تصويرا يداعب فيه
أصدقائه مشيرا بأصبع الاتهام لخلهم فيقول :

(٢) أليس عجيبا أن أمر بدرنة
وأمكنث فيها لا أذوق بها موزا

(١) الديوان الفترة الثالثة / ١٥٦ - ١٥٧ .
(٢) الفترة الرابعة / ٣٥

فلو كان معدوما لسليت خاطري بأن ليس في وسعي لمنعدم حوزا
ولكنني أبصرت في كل موضع عراجينه مطلوقة تشبه الجوزا
ألا إنه كالنجم بعدا مناله محال ألا فوزا لمن ناله فوزا

ويبدو أن روح الدعابة قد انقلبت الى ضرب من الملاحاة والدفاع
عن الرأي ورغبة في إظهار البراعة والتغلب على المنافس فاستحالت لضرب
من المزاح الخشن الذي لا تحمد عقباه لأنها على الأقل تمس القلوب
بشواظ من الشحنة تئن لها المودة فاتتهت الى ما يشبه الجفاء والخصومة
الادبية وطلب لها حكم محايد قاض عدل هو الشيخ أحمد الشارف الذي
عمل على إصلاح ذات البين بين الاخوة أبناء الوطن الواحد •

ومتتبع هذه المداعبة الادبية بين الشاعر وخصمه الحصادي يلمس
بعض الحقائق منها :

أ - أن الشاعر أحمد رفيق ربما عبر عن تجربة ذاتية حرمة موز درنة
الطيب الجنى ولا يحتم ما ذهب اليه أن يكون أهل درنة بخلاء بل هو
يشعر لإرهاق حسه أن مرضه يحول بينه وبين الموز فكان الموز في الثريا
مع أنه على الثرى وهو قريب المنال إن شراء وإن إهداء •

ب - ان الشيخ محمد عبد الحميد الحصادي قد تهجم على شاعر
الوطن على قرب عودته من مهجره واتهمه بالجلافة وعدم التحلي بأداب
الفكاهة وكلفه بقبول عذره كأنه الموكل بالدفاع عن أهل درنة فان لم يفعل
فليفعل ما يريد من اظهار عدم الرضا واختار لذلك مثلاً عامياً يدل على عجز
الشاعر وتحقيره كأنه يقول له ما معناه اشرب البحر أو انطح الصخر •

ج - ولهذا فقد تألم الشاعر أحمد رفيق من دعابة الحصادي ورده
غير المتوقع لانه على الاقل يعتبر نفسه والحصادي صديقين تجمعهما حرفة

الادب ولانه كان يرى أن للصدقة حقوقها التي يجب ألا تهان في سبيل
غلب زائف على صفحة جريدة يومية ولهذا فقد قال له إن في استطاعته أن
يحصل أهل درنة (روزا) اذا شاءوا ذلك ووكلوه في الدفاع عنهم وعليه
عندئذ أن يأخذ وكالة رسمية في أن يكون لسانهم المدافع عنهم وحينئذ
سيدرك من يكسب القضية واتهمه بمحاولة افساد المودة بينه وبين مجيه
من أهل درنة وانه بتدخله كمثل من أراد تجميل العين فأعمها وأنه قد
تدخل فيما لا يعنيه تدخلا مؤلما بغيضا ومع ذلك لم تفارقه روح دعايته
فهو ما زال يرى الحصادي كريسا ويستبعد أن يكون تدخله بينه وبين
أحبه بخلا بالموز الذي سيصيب منه الشاعر ليقوى على حمل درنة (روزا)

د - بدت في هذه المساجلة روح الشاعر مرحة طروباً ورشيقة صافية
الوداد مولعة بالفكاهة والطرفة الادبية مكبرة للاصدقاء سعيدة بصدقتهم
تجلهم عن أن يوصفوا بالخفة إلا خفة الظل والروح وبعد أن يتغزل الشاعر
بالموز مضيقاً عليه كل ضروب التجميل لونا عسجديا وصفاء الجسم هو
الهلال بعينه وعطر رائحة يتعجب من عدم قدرة طيب أنفاسه الذكية يجرد
منه محبوبة منعمة عذبة الريق تنفج بالشذا - التي لم تقو على اضاء
الطيب على أرواح أهل درنة وإلا لرقوا لحاله وأنالوه .

ويستغرب الشاعر مداعبا كيف يجرمون ما أحل الله من هذه الفاكهة ،
ألا غالوا في مهرها مغالاة الصهر الكاره .

ويتعجب من أن يطول أمد هذه الملاحاة في ملاطفة امتدت حتى غدت
(صنوره العرفي) لا يراد منها إلا الجدل المثير للخصام لارضاء نزوات من
مرضى شهره شفاؤهم في اطراء الناس لهم ووصفهم إياهم بالقدرة على
صوغ القريض ولهذا فقد أعلن من جهته أنه قد أنهى هذه المساجلة لانه يرى
المفاكهة والاطراف كالملح إن أكثر منه أو قلل أفسد المودة فان عادوا فلن

يجيبهم إلا بقوله سلاما حتى لا تتردى الصلات إلى أسوأ مما صارت إليه
فكان لسان حاله يقول « سلام لا نبتغي الجاهلين بحقوق الصداقة وإدارك
لذة الادب » •

هـ - كثرت في مقطوعات الشاعر وقصائده في هذا المعنى من معاني
الشعر الاخوي الالفاظ الدارجة وبعضها أجنبي معرب كما كثرت فيها
الأمثال الشعبية أيضا وهذا يدل على عفوية في الأداء تطلق فيها النفس على
سجيتها في صياغة ما يعن لها من المعاني والصور الادبية كما أن فيها اقترابا
من قاموس عامة الشعب لتسير بين الناس وتتداولها الافواه إذ موضوعها
قد تحول الى ضرب من المساجلة لنيل قصب السبق واتزاع إعجاب
الجماهير •

يقول أحمد رفيق بعنوان « أشيلهم » :

(١) ومعتذر عن آل درنة قال لي
إذا أنت لم تقنع فشل أهلها (روزا) (٢)
إذا وافقوا عما تقول وأنهم
أنا بوك عنهم حاميا دونهم حوزا
سأفعل ما شاءوا إذا قر رأيهم
على حملي (الانتقال) أو أكلي الموزا

(١) الديوان الفترة الرابعة ص ٣٧ •

(٢) الروزا : لعبة يتمدد فيها أحد اللاعبين على الارض على ظهره ويده
ملتصقتان على جنبه ويحاول خصمه أن يرفعه (كناية عن عجز المخاطب) •

فخذ أولا للذود عنهم وكالة
وننظر فيما بعد من يكسب (الكوزا) (١)
أردت لها كحلا فأعميت عنها
وأحدثت بيني والمحبين لي (بوزا) (٢)
دخولك بين الظفر واللحم إن يكن
لبخل بموز لن تنال به فوزا
سأطعمه بالرغم منك لانه
يقوى على ما قيل من يلعب الروزا

كما يقول أحمد رفيق أيضا :

أنت العزيز وأهلك البخال	(٣) يا موز حالت دونك الأتقال
وصلا فيمنع وصلك العذال	أهواك يا حلو النسيم وأشتهي
جردت من قشر فأنت هلال	يا لابسا من عسجد لونا إذا
خشن القلوب كأنها أجيال	يا ناعما ما بال أهلك بعضهم
أرواحهم رفوا لنا وأنالوا	يا طيب الانفاس لو طيت من
من نالها إثم وأنت حلال	جعلوك فاكهة محرمة على
ما كان يعوزنا لذلك مال	لو أنهم طلبوا لاجلك قيمة
في شرطهم لما حموك وصالوا	يا ليتهم كانوا (نسيبا كارها)
معنى الكلام فأغربوا وأحالوا	شرطوا لوصلك روضة لم يعرفوا
والله أخجل أن يقال ثقّال	أيظنهم عندي ثقّالا إنني
فوق القلوب كأنهم آمال	إنني أراهم مثل خفة روحهم

(١) كوزا لفظ ايطالي بمعنى قضية .

(٢) بوزا : زعل كلمة دارجة كأنها مشتقة من مبوز بمعنى عابس أو حزين

(٣) الديوان الفترة الرابعة ٤٠ - ٤٢ .

وأجلهم عن أن يكونوا روضة
لو زرتهم ووضعتهم في كفة
كانت ملاطفة فأضحت عندهم
صارت (كطحن الرز) لا ينبغي به
في الناس مرضى شهرة وشفائهم
هذا بلاغ لا تروموا بعده
إن كان مزحا فليكن كالملاح لا
سأقول إن عدتم سلاما إنني
لو شلتها لأقلها مثقال
ونفخت في أخرى القريض لшалوا
صنورة العري لها أذيال
إلا الخصام وأن يثار جدال
في أن يقول الناس عنهم قالوا
مني مجارة لما سيقال
إكثاره عدل ولا الإقلال
أخشى عليكم أن تسوء الحال

روح الشاعر المرحه الطروب لا تفارقه عندما تسنح فرصة للمفاكهة
والمداعبة وإظهار عضلات القريض وما يجب أن يراعي من أجله صاحبه من
المهابة واتقاء غصبة رثبال القريض مخله ونابه فهاهو ذا يشتكي لأحد
أصدقائه فقد دراهمه إثر مجلس صداقة تساقى فيه الأصحاب رحيق الصداقة
والشراب والفكاهة وأصابوا فيه من لذائذ الطعام ثم انفض مجلسهم وقد
آذنت الغزاة أو ذكاء بغروب ؛ جلس الشاعر بعد ذلك على قهوة وأراد أن
أن ينقد صاحبها ثمن شرابه فلم يجد النقود فأخذ بما عهد فيه من روح الدعاية
يفكر فتذكر أنه ما صرفها ولا أضاعها وأنه ما فقد صوابه في كل ما أتى من أمر حتى
ثبت له باليقين أنها قد سرقت منه وفي تلك البركة المشؤومة وأنه لا يتهم
أحدا من الرفاق فكلهم سليل مجد وعفاف وأنحى باللوم على المضيف الذي
أفاض في تقديم الطعام والشراب وقصر في حراسة ثياب الجلساء وتقودهم
واتهم غير منصف البواب الذي جرده مما أضفاه على الصحب من إنسانية
وأمانة ويستمر مداعبة المضيف في مزاح وإشراق عاطفة عندما يغرمه جزاء
إهماله بأعداد وليمة للأصدقاء أما هو فقد احتسب ما ضاع منه عند الله
تعالى ؛ يقول الشاعر وروحه القصصية بادية في شكواه :

(١) يا سيدي موسى إليك شكاتي
كنا مع الاصحاب في بركة
رخا لكي نحبي النفوس ونلتقي
ولقد تمتعنا بكل لذيذة
وفكاهة ونوادير ولطائف
حتى توارت بالحجاب وخلفت
الى أن يقول :

لما تفرقنا جلست بقهوة
فتشت جيبي ما وجدت دراهمي
حققت فيما قد صرفت وما بقي
واستيقنت نفسي بأن دراهمي
أقسمت ما وقعت ولا ضيعتها
أنا لست متهما سليمان ولا
حاشا هموا من كل ظن سييء
لكنني والحق لست بآمن
إن حل بالابواب يوما آفة
هذا حديثي يا كلیم بسطته
وأعلم بأنني لا أريد لضائع
لكن يعوضها سليمان بما
ويكون من أذكى طعام طيب
هذا وإن هو لم يجب بمروءة

مسا دهي جيبي من الاصحاب
مشؤومة الاعتاب والابواب
فيها ونلعب جائز الالعاب
من مأكّل وفواكهٍ وشراب
ومباحث راقّت ذوي الألباب
أستار ليل حالك الجلباب

كي يستريح الجسم من أتعاب
فشككت في نفسي وعدت حسابي
فعلمت أنني ما فقدت صوابي
سرت وفي بركة الصلابي
ولقد حلفت ولست بالكذاب
فتحي ولا موسى فهم أترابي
أهل العفاف سلاله الانجاب
ذاك الممدد من وراء الباب
لا تشبه إلا من البواب
والحكم حكمك فاشفني بجواب
عوضا ولا أرضى بهتك حجاب
ترضاه لي من جملة الاصحاب
ويخصني من بينهم بشارب
حدثه عن ظفري وحدة نايب

(١) الديوان ج ١/٤١ - ٤٢

أخبره أن الليث عند غضابه يلقي المنية ليس بالهياب
لا يستحق الهجو إلا أنني أدعوه فيما بعد بالسلامي
أنا في حماه وقد سلبت دراهمي فهو الكفيل بها مع النهاب

ويختم الشاعر قصيدته بتحية الحكم في هذه القضية التي أجاد سرد قصتها وأبدع في تقديم البراهين الدامغة على صدق دعواه فيها وكان فيها صدق عاطفة الصداقة وشفافية روح للشاعر وجزالة ألفاظه وحسن استخدامه لتاعدة تداعي الأفكار إذ استغل اسم الحكم فنغته بلقب كليم الله موسى عليه السلام وهو نبي وبهذا يورط موسى ليذلل قصارى جهده ليغرم الصلابي بوليمة تسعد الاصحاب كما استغل اسم الصلابي ليضحك منه ويترك في نغته فهده بوصف « السلاب بمعنى المغتصب » •

والقصيدة مثل لتطور الشعر في المعنى فهي تمتاز بالعضوية القائمة على وحدة الموضوع إذ هي في غرض واحد هو شكوى الشاعر من عبث الاصدقاء الذين داعبوا شاعرهم مداعبة خشنة فسلبوه نقوده رفعا للكلفة وإمعانا في الاضحاك وتوريطا له في طريق عودته بحيث يخرج في أهون حاجات يومه كدفع ثمن فنجان قهوة كما امتازت القصيدة بثبات عاطفتها الضاحكة الباكية التي أسبغت عليها منذ المطلع حتى ختامها •

ومع هذا فقد احتوت القصيدة على بعض ما يزيد لها واقعية وغفوية من بعض ألفاظ يومية دارجة وتعبيرات شعبية مثل قوله « مشؤومة الاعتاب والابواب » من قولهم الحظوظ في « أعتاب وكعاب ونواصي » ، « ما فقدت صوابي » ما فقدت عقلي أو بالدارج من الالفاظ « ماتخوختسن » وقوله الانجاب بدلا من النجباء وقوله عوضني على الله الكريم وهو مع سلامته لغويا إلا أنه لفظ تداولته اللسان فغدا شعبيا جاء به للامتاع واستشارة البسمات على الشفاء ، أورده مباشرة بعد تعبيره الرصين المؤدي للمعنى وهو « احتسبت مصابي » •

خاتمة البحث

ومسك الختام لبحثي عن الشاعر أحمد رفيق بعد أن اطلعت على ديوان شعره المطبوع في ثلاثة أجزاء كما وقفت على بعض آراء إخوانه المعاصرين له مثل الاخ عبد ربه الغناي الذي قدم للشاعر دراسة نقدية منصفة وهي كتابه « رفيق في الميزان » وبعد أن عشت مع شعره فترة ليست باليسيرة أوجز رأيي فيه فيما يلي :

١ - كان رحمه الله شاعر الوطنية الصداح الجريء الصادق فقد عاصر فترة حالكه من تاريخ الوطن في العصر الحديث مني فيها الوطن بالاستعمار الايطالي الغاشم فصارعه الشاعر بالكلمة الشريفة المناضلة غير هباب الموت في سبيل أن يبقى مرفوع الرأس حاملا مشاعل الجهاد ولقد ضاق الاستعمار بجرأة الشاعر وعجز عن إغرائه واحتوائه فأجبره على ترك الوطن أكثر من مرة وكان الشاعر يعود للوطن كلما سمحت الظروف بالعودة ليناضل فوق أرض الوطن متعرضا للقتل والسجن وهو لم يدع مظهرا من مظاهر النضال الوطني الذي يذكر نخوة المناضل بالسلاح إلا كان له فيه النصيب الاوفر، فقد ندد بجرائم الاستعمار وقتل جنوده الابرياء من شيوخ ونساء وأطفال وعدم تورع حكامه من التخلص من نجباء الاطفال غيلة وغدرا كما اغتيل غيث الصغير وقد ندد بالعملاء من المواطنين الذين خدعوا باغراءات المستعمر وساروا في ركابه لمطامع مادية كتنديده بالقاضي الجانح مع المستعمر وكتنديده بصحيفة البريد وكان من مظاهر وطنيته حنينه للوطن والاصدقاء فيه وتصويره لمعاناته الشديدة وشقائه في مطارح الغربة كما دعا للوحدة الوطنية وحسن تربية الفتاة والعناية بتحسين وضع المعلم كما دعا لتوثيق

رابطة الوطن باشقائه من الدول العربية وقد قام بهذه الرسالة الوطنية السامية خير قيام في قوة واستفاضة وصدق عاطفة وإبداع خيال خلاق كما سبق أن صورت هذا الغرض من أغراض شعره •

٢ - كان للغزل حظ وافر من قريضه ولا غرابة في ذلك فالشاعر من عشاق الجمال بكل ما في هذه الكلمة وعلى عموم مدلولها فقد أحب المرأة جسدا وروحا ولعله كافت له تجربة خاصة حرمتها ظروف الوطن القاسية من جني ثمارها فقد كان يجمع بحب صادق عميق وكانت الذكريات ما تزال تعاوده وقد شرح النفس الانسانية تشريحا يدل على صدق معاناة وقد ذكر محبوبته بكل شيء جميل شاهده بل إنه قد أعلن عن نكء جراحاته بمحض صدفة عابرة وضعت أمام محبوبته وجهها لوجه بعد انقطاع أمل في اللقاء امتد زهاء تسعة أعوام ويصور ذلك اللقاء وحديث العيون وتفاهم القلوب في صمت كما يصور عدم احتمالها وأنها قد كانت أقوى جلدا وأعظم تماسكا وإذا به يكرمها ويصفها بالعفاف والصون ويسدل على حبها ستارا احتراما للتقاليد وهو كغيره من شعراء العربية المجيدين قد مزج الحب بالشراب تارة وبالطبيعة تارة أخرى فأتت تعبيراته فياضة بعاطفة الحب المشرقة السعيدة كما اتسمت أوصاف الطبيعة لديه بقوة التشخيص التي تسكب الحياة متدفقة في أعطاف الطبيعة وتصيرها عاقلة زاخرة بشتى العواطف من غيرة ووداد وسرور كما أن الشاعر قد أعلى من سلطان الحب وقهره ذاك الذي صير ملكا مطاعا لا تغرب عن أرجاء مملكته الشمس ينصاع عن قناعة وسرور لامره متخليا عن الجاه والصولجان آخذا بيد الحبيب معرضا عن كل ما سواه •

٣ - الوطن الحبيب لدى الشاعر مترامي الاطراف أسبغ الله عليه من آيات الجمال ما تعجز عن تصويرها ريشة أبداع الفنانين فيه الجبال الشاهقة التي تناطح السحب تزينها الاشجار الباسقة وتتخرج بينها الاودية المتعرجة

والشلالات المتدفقة بياها الكثرية تردها زراقات الطيور حيث تشدو
للطبيعة الحاملة أعذب الالحن أمثال شلال درنة ورأس الهلال بسوسة
وجليانة بينغازي حيث قهوة الشط وحمام جليانة وغيده الحسان بلباس
المصيف حيث يبدو الجمال غير محتشم وحيث تلثم الامواج رمال الشاطئ
الناعسة وترتد على عجل شأن الشخص المريب ثم هناك الافق حيث تنسج
الطبيعة من زرقة الامواج وحمرة الشمس الغاربة صفحة قدسية رائعة •

وقد امتاز الوصف عند رفيق بنوع من الصوفية الحاملة والتقديس
عند وصفه مظاهر الطبيعة الكبرى من جبال وشمس ونجوم وبحر
وشلالات وبضرب من الحسية المفرطة فيما عدا ذلك وهو في أوصافه يكثر
من التدييج وجمال التلوين والتشخيص وإسباغ الحياة على الجماد مع
عناية بالحركة والتنغيم الموسيقي ووصف دقائق الكائنات واصواتها ليعطي
وصفه حظا من الواقعية ولا يغفل أن يكون نظمه في الوصف على بحر
الرجز الذي يمنح الوصف حركة وحيوية •

٤ - ولقد لا حظت أن مراثي الشاعر وإن كانت قليلة نسبيا لشعره
الذي استغرق ثلاثة أجزاء من الديوان قد اتسمت بصدق العاطفة وإبتكار
في أكثر من معنى وأنه قد خطا بمفهوم الرثاء خطوة للامام فلم يقصره على
من تربطه بهم صلات قوية من الاقارب والاصدقاء ولم يقصد به تعزية ملك
أو أمير وإنما تعدى به أبناء الوطن العربي فرثى بعض عباقرة الفن أو العلم
ولقد كان رثاؤه لجبرائيل دانونزيو شاعر ايطاليا ضربا من التأمل الفلسفي
والنقد الأدبي الذي وجهه لشعراء الادب العربي في العصر الحديث الذين
ما زالوا بعد شوقي والزهاوي يتصارعون على الزعامة الادبية دون أن
يقدموا لاوطانهم ما يستحقون عليه الالقاب الادبية التي تمنحها الاوطان
لرجال الادب المجيدين الذين يخدمون أوطانهم والانسانية في إخلاص
وصمت •

أما مرثيته لما ركوني فقد كانت أقرب إلى الإعجاب به والوصف للاختراع ذاته فليست هناك عاطفة اللوعة والتفجع التي بدت في رثائه للشيخ الاباصيري ولقد عزوت هذا الاقلال وركود العاطفة الى نفس رفيق الطروب المتفائلة المقبلة على الحياة التي تنصرف عن أسباب تهيج الاحزان ما وجدت لذلك سبيلا كأنها قد اكتفت بحمل آلام الوطن التي تنوء لها أعناق الأشداء من الرجال •

٥ - أما ما يسمى بالاخوانيات وهو غرض قديم تطور الى حد بعيد في شعر الشام وفي البيئة الحمداية على وجه الخصوص فقد كان الشاعر مكثرا فيه كما ذكرت وهو فيه مشرق العاطفة بهيج النفس مقتنص الفرصة السانحة لقول الشعر ولكنه كان يتألم إن لم يدرك مساجلوه سمو مغزاه أو أرادوا الاسفاف أو اصطياد الشهرة على حساب الصداقة والاخلاق عندئذ يتحول الشاعر الى بركان بالحكم يصمي أعداءه بسهام الهجاء العنيف الذي لا يسف صاحبه ولا ينال الاعراض ببذء القول وإن كان يستخدم الالفاظ الشعبية والامثال الدارجة ليصور غايات ونهايات المعاني بل يحسن استخدام التراث في صور بارعة طريفة كما يكثّر من استعمال الالفاظ المعربة أيضا •

٦ - سار في معظم شعره على عمود الشعر العربي من حيث التزام الوزن الواحد والقافية الموحدة خصوصا في التعبير عن تجاربه الاصلية كالحنين أو الهجاء للمستعمر أو الدعوة لمواصلة الجهاد وتوحيد الوطن أو الرثاء •

٧ - ومع ذلك فقد كان حظه من التجديد موفورا في المضمون والاطار على حد سواء فقد نهض الشاعر بعبء مناضلة المستعمر بشعره وغني بتحرير وطنه ودعا لوحده وكشف عملاء الاعداء الذين يرغبون في تقطيع أوصاله وحث على النهوض به فكان بهذا الشعر السياسي مجددا في

المضمون كما أنه أكثر من الدعوة لتحرير الشعر من قيد القافية بل والبحر ولهذا نظم على نظام المزدوج المتجدد القافية والموشح مع التحرر في عدد الاغصان حتى في الموشح الواحد كما تصرف فاكثر من مشطورات البحور مع التنويع في الايقاع والنغم الموسيقي عند ما يبني الشطر على تفعيلتين بصراع مغاير لقافية التفعيلة الثالث الذي اعتمده عجزا مرفلا لمشطور البحر الذي اتخذه بيتا للقصيدة •

٨ - أما لغة الشاعر فعلى حظ كبير من الرصانة والقوة وهو محيط إحاطة جيدة بالتراث فكان لهذا أثره القوي في صورته الادبية كما أنه يكثر أحيانا من تضمين قصائده أبياتا من التراث يقتضيها مقام الغرض الشعري الذي يتناوله •

٩ - تأثر الشاعر بأبي الطيب المتنبي والشريف الرضي وأبي فراس في فخرهم وحنين أبي فراس في روميته كما أعجب بشوقي والزهاوي من شعراء العصر الحديث •

وقد اتسمت قصائد كثيرة له بالوحدة العضوية في الغرض والعاطفة التي تسودها وهذا اتجاه حديث في الشعر كان في دور الازدهار أثناء حياة الشاعر وهو وإن كان من تأثير الغرب والشعراء المهجريين المتأثرين به فلم يكن بعيدا عن الشاعر لمسه في انتاج فحول الشعر في عصره كشوقي والزهاوي وحافظ وإيليا أبي ماضي وجبران فضلا عن اتصاله بالمترجم من الادب الغربي •

ولهذا كله فقد كان الشاعر احمد رفيق المهدي شاعر الوطن في فترة عصيبة من تاريخه الذي عاناه الشاعر مواطنا حرا أبيا ينازل أعداء وطنه ويقارعهم حاملا روحه على راحته فاستحق ما لقب به « شاعر الوطن » كما كان رجلا حر الفكر تقدما دعا الى تحرير العقول والارادة بل وتحرير

المرأة واطلاقها من أسر التقاليد لتسهم في بناء نهضة الوطن فكان نصيرها
في وقت كان للتقاليد سطوة قد تفوق سلطة الشريعة الرحيمة التي سادت
بين الرجل والمرأة وكرمتها ضروبا من التكريم فأباحت لها السفور الشرعي
ومبارحة البيت لتشارك شقيقها الرجل العلم والجهاد والتجارة وضروبا
أخرى من السعي الشريف •

كما بدا الشاعر من خلال البحث إنسانا فياضا بالحيوية مقبلا على
الحياة يرتشف أفاويق صفوها من امتاع النظر بالجمال المطلق في الانسان
والطبيعة والاخلاق ومفاكهة الاصدقاء ويصور بعمق وعفوية وعاطفة مشرقة
وبراعة تصوير مما يكون الشاعر له شاعر الوطن الاول باجماع شعراء
الوطن المعاصرين له الذين سلموا له بقصب السبق وإمارة البيان في ليبيا في
زمنه وإنه في رأيي لجدير بذلك التكريم رحم الله شاعرنا الوطني الانسان
الفنان وبالله التوفيق •

مصادر البحث :

- (١) دراسة عن الشاعر للدكتور عبد القادر احمد رمضان ، ألقيت على
السنة الرابعة بكلية اللغة العربية بالبيضاء .
- (٢) ديوان الشاعر المطبوع وهو ثلاثة أجزاء ط/١ مطبعة الرسالة ، المطبعة
الاهلية ببنغازي .
- (٣) رفيق في الميزان ، عبد ربه الفناي ط/١ منشورات مكتبة الاندلس .
- (٤) الثقافة العربية العدد الثاني ، السنة الخامسة .